هنرييت عبودي

كيمياء البشر

رواية

رواية

Author : Henriette Aboudi
Title : Chemistry of Humanbeing
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008

Copyright © Al- Mada

اسـم المـؤلـف : هنرييت عبودي
عنوان الكتـاب : كيمياء البشر
النـاشـــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٨

الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

هنرييت عبودي

كيمياء البشر

إهداء

إلى العزيزين سعاد ومحمد

تقديم

العزيز أدهم

وصلتني هذا الصباح رسالتك المؤرخة في الثاني من حزيران فقرأتها بكثير من السرور والمتعة. أنت تجيد لا التقاط الصور فحسب، بل الكتابة أيضاً؛ وقد برعت، أيها الصديق، في وصف مناخات مدريد وشروط حياتك الجديدة فيها. وإني لأشكرك على مسعاك لإشراكي فيها، بفضل رسائلك التي كاد صندوق خشب البنوس أن يفيض بها. فأنا لم أنكث بعهدي. ففي ذلك الصندوق الرفيع الصنع والباهظ السعر أحتفظ بها، نزولاً عند رغبتك. تمشياً، بالأحرى، مع قولك المأثور: "إنه لمن المعيب أن يحتوي البخس على ما هو ثمين". وقد أردت رسائلك غالية عليّ، وهي كذلك بالفعل. ولكن لي رجاء عندك أيها العزيز: لا تفسد علي متعة قراءتها بإصرارك على طرح السؤال عينه في نهايتها؛ أقصد استفسارك الدؤوب عن مشاريعي الأدبية "وما جديدك أنت؟"، تعيد وتكرر. لكأنه من المحتّم أن يكون لديّ جديد. لكأنه من المستحيل، بل من اللامعقول، أن أكون بلا جديد!... ولكن، ما حيلتي إن كانت تلك حالتي؟! أفلا يكفي ما أعانيه من تأنيب ضمير كيما تنبري أنت لتذكّرني بتقصيري؟ لتذكرني بفشلي بالأحرى. ذلك أني لم أقصّر، ولكني لم أفلح...

لقد واظبت على الكتابة خلال الأسابيع الأولى التي أعقبت رحيلك؛ بل انكببت عليها بحماسة ونهم. سوّدت الصفحات بالعشرات، ولكن لأمزقها وأحيلها إلى سلّة المهملات... سيناريو مألوف، قد تقول؛ فأي مؤلف لم يشطّب على ما كتب، أصفحات أنجز أم فصولاً بأكملها؟ هذا صحيح. وقد حصل أن اختبرت هذا السيناريو في الماضي، ولكن لفترة وجيزة، محدودة. كان قصيراً، وليس مسلسلاً طويلاً لحلقاته بداية وليس لها نهاية!... ضرب من الجفاء قام بيني وبين الكتابة، وقد استقر هذا الجفاء واستفحل؛ ربما بسبب الصراع الناشب بيني وبين الكلمات. فقد رفعتْ راية التمرد في وجهي وتأبت عن النهوض بمهمة التواصل الذي أنشد مع عالمي المتخيل؛ مع شخوصه، مع أحداثه، مع أجوائه... فكيف يكون لي جديد وأداتي إليه معطّلة؟ وهل تستطيع أنت أن تنتج تحفاً فوتوغرافية جديدة لو جرّدت من آلة تصويرك؟ فالكلمات عندي تنوب مناب الكاميرا عندك. والمشكلة أنها تبقى مزاجية، متقلبة، بل نازعة إلى الجموح والعصيان في كثير من الأحيان، بخلاف جهازك الطيّع، الخاضع أبداً لإرادتك خضوعاً مطلقاً. وإني لأحسدك، أيها العزيز، على أداتك السحرية تلك. يكفي أن تضغط بإصبعك عليها حتى تثبِّت وتنقل إلى الآخرين المشهد الطبيعي الذي أعجبك، أو الحدث الذي استوقفك، أو الوجه الذي جذبك، أو النظرة التي حرّكت مشاعرك. أنا لا أهوّن من شأن عملك البتة ولا أقلّل من قيمة فنّك. لا، لست ساذجة ولا سخيفة إلى هذا الحد! فأنا مدركة تماماً للدور الهام الذي تلعبه نظرتك الشخصية إلى الحياة في اختيار مواضيعك وبناء صورك؛ وأنا على قناعة بأن أعمالك كانت ستأتي جامدة، بلا شاعرية ولا روح، لو لم تبث فيها

الكثير من أحاسيسك وعواطفك. ويقيني أنك لن تعارضني اذا صارحتك بأنني أشعر وكأن هناك تواصلاً شبه جسدي بينك وبيني . مع ذلك يبقى تعاملك، أنت، مع آلة، تضغط عليها فتلبيك للحال.

حاولت أن أفهم أسباب نزاعي مع الكلمات، أسباب نزاعها معي بالأحرى. فلست أنا من يلفظها، وإنما هي التي تخذلني. وانتهيت إلى رأي، رجّحته وإن لم أجزم به جزماً. فلأن مفرداتي تعثّرت في أداء المهمة المسنودة إليها، فقد أبرمت قرارها بالتوقف عن الاضطلاع بها! وهكذا، وبعد أسابيع من تسويد الصفحات وإتلافها تباعاً، غدوت أعاني من ظاهرة الصفحة البيضاء! قد تسأل: لماذا تعثرت، أعني المفردات، فنقمت وتمرّدت؟ ربما، أقول ربما، لأنها استهابت من الموضوع الذي أردت توظيفها في أجله...

لقد خلّف رحيلك، أيها العزيز، فراغاً كبيراً في حياتنا. ولئن لجأت إلى صيغة الجمع فلأن أصدقاءنا، كافة، قد عانوا من فراقك. فقدت لقاءاتنا ألقها، وما عادت ريح النزوات تعربد في سهراتنا. إذا ما اجتمعنا رافقنا الملل، وإذا ما جئنا بذكرك فلنتحسّر على بقائنا القسري في مدينة تحكمها الرتابة. أتراك قد أخذت معك سهواً، من جملة المتاع الذي حملت، عنفواننا وإقدامنا على الحياة؟...

قد تقول: ما دخل هذا بذاك؟ ما علاقة رحيلي بأزمتكِ مع الكلمات؟ العلاقة قائمة، أيها العزيز، ولو على نحو غير مباشر. ذلك أن الموضوع الذي استهابت منه مفرداتي يستوحيك، وإن في حدود. إطمئن. ليس في نيتي، على الإطلاق، أن اروي قصتنا؛ ولا أن أجعل منك بطل روايتي، بوصفك المصوّر البارع، الساعي أبداً وراء اللقطة

الفذّة، أو باعتبارك بدوي الحب، الدائم التنقل بين امرأة وأخرى... إن الفراغ الذي خلّفته هو نقطة انطلاقي، إذ حرّك في أعماقي الحنين إلى خلق بطل فُطر، هو، على ملء الفراغ...

يقيني أيها العزيز أنك، على غراري، قد نفضت من ذاكرتك الكثير مما حفظناه على مقاعد الدراسة. ولكن، فيما يتعلق بي شخصياً، فإني لا أزال متأثرة، بل مدموغة دمغاً، بصورة ما كان يطلق عليه اسم "الوسيط". إنه ذلك الجسم الغريب، الذي لا يدخل في التفاعلات الكيمياوية، والذي يبقى وجوده، مع ذلك، ضرورياً، بل أساسياً، لحصول التفاعل. فإذا ما تواجد، أمكن حصول التفاعل، فتتلاحم جزيئة غاز أو معدن بعينه مع جزيئة غاز أو معدن آخر. وإذا ما غاب عن الساحة، تعطل التفاعل وبقيت الأمور على حالها. في الفرنسية، يعرّفون عليه بكلمة Catalyseur، الجميلة الوقع والواضحة الدلالة. بخلاف مرادفها العربي "الوسيط"، المتعدد الدلالات، والذي لا يشير حصراً إلى "عرّاب" التفاعلات الكيمياوية ذاك.

ما كنت سأثقل عليك بهذه الحذلقات العلمية لو لم يكن مشروعي الروائي الجديد - المشروع الذي مني حتى الآن بفشل ذريع - يتمحور حول بطل "وسيط". شاب لا يعشق ولا يكره، بيد أنه يشعل العواطف ويؤججها حيثما حلّ، الإيجابية منها والسلبية على حد سواء. فبفعل حضوره قد يحرق الحب المراحل في تبلوره وطغيانه، كما قد تتفكك أواصره فجأة، وتنهار صروحه في مثل لمح البصر، رغم ظاهرها المتين والمتماسك. وقد أردت هذا الشاب وسيماً، أنوفاً، أنوياً، يتلقى حب الآخرين وإعجابهم وعطاءهم كجزية مشروعة تسدد له، ولا يشعر بالحاجة

إلى أن يعطي بدوره لمن أغدق عليه. وقد أردته، في الوقت عينه، حزيناً، معانياً من إحساس دائم بالغربة، وكأنه يبحث عن عالم مفقود كل ما يعرف عنه أنه غير مطابق على الإطلاق للذي يعيش فيه... فهو لا يتفاعل مع من يحيط به، وإن فطر على تحريك التفاعلات وتسريعها.

هذا الشاب - الوسيط وددت أن أسقطه، أن أزجّه ان شئت، في عالم صغير شبه مغلق، ينوب مناب أنبوبة الاختبار؛ وقد اخترت إدخاله إلى فندق في بلدة ساحلية، هو أقرب إلى البانسيون العائلي منه إلى الأوتيل التقليدي. ذلك أن رواده دائمون في غالبيتهم، يقيمون فيه منذ زمن. ولسوف تنقلب الحياة الرتيبة التي يعيشونها رأساً على عقب بحكم مجيئه. لا تتعجل في إطلاق حكمك عليّ، أيها العزيز! فإني لأسمعك تقول، لحظة قراءتك هذه الأسطر: "ما هذه النغمة التي خرجت بها؟ أتريدين أن تجعلي من أطروحة رواية؟...". كن مطمئن البال، أيها الصديق. فهذا النوع من الأدب لم يجتذبني يوماً، ناهيك عن أن عهده قد ولّى منذ زمن. ولكن صعوبة مشروعي تكمن، على وجه التحديد، في خطر الوقوع في مطبّ الرواية - الأطروحة... خطر لن أنجح في تفاديه ما لم تسعفني المفردات والصور؛ ما لم تؤازرني في وصف جمال ذلك الشاب الذي يمارس سحراً حقيقياً على من يعايشه. جمال يبعث الرغبة في الحياة، في السعادة، في إطلاق التحديات، في الإفلات من أسر الشرنقات الخانقة؛ وجمال يؤلم أيضاً لمن يرغب فيه، أو يسعى إليه، لأنه من النوع الذي لا يُطال.

لو كنت أتعامل مع كاميرا لربما هانت عليّ المهمة؛ فهي أداة تجمع بين البلاغة والسرعة، علاوة على أنها متحررة من أعباء التفسير

والتبرير. فلو جذبك أنت جمال وجه، لو حرّك مشاعرك واستنفر خيالك، لبادرت إلى "التقاطه" في لمح بصر، وعرضته من ثمّ على أنظار الآخرين، علّه يحظى لديهم بالوقع الذي حظي به لديك. لا تحتاج إلى التمهيد والتخطيط، ولا إلى الفصاحة والتوضيح. يكفي أن تختار الزاوية الأنسب، والإضاءة الأفضل، وأن تضغط على آلة تصويرك. هكذا يخال لي، على الأقل... فحبذا لو تعاونّا أيها العزيز؛ حبذا لو أقمنا شراكة عمل متناغمة ومتكافئة. أنا أحدد الموضوع، أختار الشخوص والأمكنة والمواقف، وأنت تتولى إعطاء ما هو متخيّل كثافة المادي والواقعي. فهيا، تيقظ واستعد. سوف ندخل معاً، أنت تحمل آلتك وأنا قلمي، إلى بهو فندق يقع غير بعيد عن الشاطئ، في بلدة ساحلية ما. الفصل شتائي والساعة غسقية. يواجهنا، جالساً خلق مكتب خشبي، رجل في العقد السادس، أصلع الرأس، عريض المنكبين، تنطق تعابير وجهه بالطيبة. سوف ندعوه حاكم...

ما أن دفع الشاب بيده الباب الزجاجي الدوّار وتقدم متمهلاً، حتى انتاب حاكم إحساس بأن حدثاً خارقاً قد طرأ على الحياة في فندقه. وقد حاول مراراً، في الأسابيع التي تلت، أن يحقق في أسباب الشعور الذي غمره لحظة دخول مرهف عليه، أن يستكشف مبرراته ويسعى إلى تحديدها؛ غير أن استذكاره المكرر لدقائق ما حصل أثناء ذلك اللقاء الأول لم يجده نفعاً. فما من حركة أقدم عليها الشاب، ما من عبارة تفوّه بها، خرجت عما هو مألوف. فقد دنا من المكتب الخشبي الذي تربّع حاكم خلفه، وضع حقيبته على الأرض وطلب غرفة. وعندما أوضح له حاكم، وهو يناوله مفتاحاً من النحاس الأصفر، أن الغرفة تقع في الدور الثاني وأنها، لسوء الحظ، لا تطل على البحر، كان تعليقه "لا فرق". وبالرغم من لامبالاة الشاب الصريحة بموقع الغرفة التي رست عليه، اعتبر حاكم من مقتضيات اللياقة أن يضيف: "تكاد جميع غرفنا أن تكون مشغولة مع أننا في عزّ الشتاء. فلدينا نزلاء شبه دائمين خارج موسم الاصطياف". وكان سيفيض بمزيد من المعلومات حول الصيغة الجديدة التي اعتمدها في استثمار فندقه، "بانسيون العائلات"، الذي غدت معظم غرفه تؤجّر شهرياً، لو لم يبادر الشاب إلى وضع بطاقة هويته على

المكتب، في حركة تفيد عن رغبته في وضع حدٍ للحوار. استفسره حينذاك عن مدة إقامته فأجابه، وهو يرفع حقيبته عن الأرض: "ربما أسبوع، ربما أكثر". هذا كل ما قال وفعل. فلماذا اعتبر حاكم قدوم هذا النزيل حدثاً خارقاً؟ يذكر أنه تتبعه بنظراته وهو يسير نحو السلم ويرتقي درجاته بيسر ورشاقة، مع أن حقيبته كانت كبيرة، وثقيلة الوزن على الأرجح. ويذكر أنه قال، لحظتها، بينه وبين نفسه: "إن هذا الشاب بحاجة إلى حقيبة أصغر". كما يذكر أنه ابتسم بالرغم منه: فمنذ متى كان يعير حجم متاع نزلائه اهتماماً؟ وعندما دوّن اسم القادم وتاريخ تولّده في سجل الفندق أجرى في ذهنه عملية حسابية للوقوف على سنّه، ثم هزّ رأسه مستغرباً. فالمدعو مرهف سالم لا يبدو في الثلاثين؛ من يشاهده يخيل إليه أنه في حضرة فتى ودّع لتوّه طور المراهقة. "ربما لأنه نحيل" فكّر حاكم، "أو لأن هندامه غير تقليدي". كنزة صوفية بيضاء، وسترة جلدية سوداء، ولفحة خمرية تكاد تكون حمراء... لو لم تجزم بطاقة هوية الشاب بانتمائه إلى أهل البلد لنزع حاكم إلى اعتباره أجنبياً. ولاسيما أنه أبيض البشرة، بل شاحب اللون، كأنه ترعرع على أرض لا تلفحها الشمس. لماذا تراه قصد هذه البلدة الساحلية في أواسط الشتاء؟ أللضرورات العمل أم للاستجمام؟ قد يقيم أسبوعاً أو أكثر، قال؛ وهذا ما يرجّح كفة الاستجمام. ولكن لماذا جاء في موسم الأمطار؟ أليزداد شحوباً؟ وضحك حاكم؛ ضحك بصوت عالٍ، فاستأهل نظرة متفحّصة ومندهشة من أمينة التي دلفت لحظتها إلى بهو الفندق، قادمة من المطبخ. واستبق السؤال الذي كانت زوجته ستطرحه عليه لا محالة بأن سارع يقول: "تذكرت نكتة حكاها لي أحدهم". وأضاف بلهجة مرحة،

بل مغتبطة: "جاءنا نزيل جديد... ربما يتناول عشاءه في الفندق، فاحسبي له حساباً". فأجابت أمينة بنبرة زاجرة: "وماذا تعني بكلمة "ربما"؟". وإزاء الصمت الذي لزمه زوجها تابعت تقول: "تريدني أن أعدّ وجبة إضافية هكذا، لوجه الله؟! لماذا لم يعطك جواباً صريحاً؟". "لأني لم أطرح عليه السؤال"، ردّ حاكم وهو يحكّ قمة رأسه، بحثاً عن بقية من شعر هجرها من زمان.

كان عليه أن يفتح حقيبته ويبادر إلى توضيب متاعه في الدولاب الخشبي الذي توسطته مرآة. ولكن بدلاً من النهوض بهذه المهمة، التي لا مناص منها على أي حال، ارتمى على السرير، فوق غطاء صوفي تفوح منه رائحة النافتلين، ومكث للحظات ساهماً، يحملق في سقف اعترضته شقوق وتدلّى منه فانوس من المعدن الأسود. في عنقه أحسّ بوخز الصوف الخشن، فرفع رأسه ثم نهض عن السرير. مرّر يده في شعره، ليعيد ترتيب خصلاته، ودار على نفسه في الغرفة التي ضاقت بقامته الطويلة. ستارة من نسيج الكريتون المزهّر غيَّبت زجاج النافذة اليتيمة؛ سحبها بقوة وفتح النافذة فبانت، في قبالته، مجموعة من الأبنية القديمة، تلاصقت لتشكل صفاً واحداً. أبنية متعددة الطوابق، خالية من الشرفات، شبه متداعية، بدت له وكأنها تتعكّز على بعضها للبقاء واقفة: فلو اتفق أن انهدّت واحدة من بينها للحقت بها زميلاتها تباعاً...

أعادته تلك الأبنية بالذكرى إلى الملصقات التي هدته إلى هذا الفندق الوضيع، فابتسم. ذلك أنه لو اتفق أيضاً أن تمزّقت واحدة منها، اقتلعت من مكانها وذهبت في مهبّ الريح، لانقطعت السلسلة التي

جاءت به إلى هنا... فقد سار على هدي تلك الملصقات منذ لحظة مغادرته محطة القطار؛ انقاد وراء اليد المنبسطة السبابة، التي كانت تشير إلى سهم خطّت في جواره، بحروف سوداء بارزة، كلمتا "بانسيون العائلات". كان يبحث عن فندق، في مطلق الأحوال، أي فندق كان. ولمّا تطوعت تلك الملصقات للإمساك بيده، ولتحديد مساره، تبعها بلا تردد، من شارع إلى آخر، من جادة إلى زقاق، يجرّ وراءه، بتأفف وامتعاض مطّردين، حقيبته الوازنة. فكلما تراءى له أنه بات على مسافة خطوات من هدفه، كانت ملصقة جديدة تفاجئه عند منعطف، وكانت السبابة الممدودة تأمره بمواصلة السير... إنه لرجل محتال، صاحب الفندق طبعاً! يعرف كيف يرمي شباكه لاصطياد الوافد الغريب عن البلدة. يوهمه بأن بانسيونه العتيد هو على قاب قوسين أو أدنى من محطة القطار، وبأن من يقصده يوفّر على جيبه أجرة التاكسي، ثم يجرجره عبر متاهة من الطرقات مع ما يحمله من متاع. ومتاعه، هو، ثقيل. يتساءل، وهو يرمق حقيبته الضخمة، إن كان سيحتاج فعلاً إلى تلك الكمية من الملابس التي جاء بها. فقد لا يقيم هنا أكثر من أسبوع؛ وهو لا يعرف أحداً في هذه البلدة التي لا تعد، أصلاً، بلقاءات تستدعي التأنق والاعتناء بالمظهر. لاسيما في الشتاء: فالصيف هو موسمها!... حقائق لم تفته عندما أعدّ حقيبته. غير أنه حشاها، بالرغم منه، وبأحدث وآنق ما اقتناه من ثياب. لماذا؟... لأن من عادته أن يحتاط للمناسبات الطارئة؛ لأنه يعجز عن اختيار سترة دون سواها، وعن تفضيل بزة على أخرى؛ لأنه يأبى إهمال شكله حتى ولو سار وحيداً في صحراء مقفرة؛ لأنه فعل ما فعل وكفى! فهل سيحاسب نفسه الآن على حبّه للتأنق؟...

أفلم يلتجئ إلى هذه البلدة السقيمة هرباً من محاسبات موجعة؟ أو سعياً وراء إرجاء موعدها على الأقل؟...

همّ بفتح حقيبته، الجاثمة على الأرض، في جوار السرير. جمع بتؤدة ربطات عنقه الحريرية التي كان قد وزّعها بين قمصانه وكنزاته الصوفية، وبحث لها عن موقع أمين في أحد أدراج الدولاب الخشبي. فيما كان يرفع ربطة عنق خمرية، مصرورة بورق السلوفان، سقطت من بين يديه بطاقة صغيرة زرقاء، مستطيلة الشكل. التقطها وظل ممسكاً بها للحظات، حتى بعد أن فرغ من قراءة ما سطِّر عليها: "إلى مرهف، مع حبي. حنان". مزّقها بعد ذلك، بقدر من التأني، ورماها في سلّة المهملات.

أجّل إلى وقت لاحق ما تبقى عليه من ترتيبات، وعزم على القيام بجولة قصيرة قبل حلول الظلام. فقد أخذ نور الشمس بالانحسار، مع أن الساعة لم تتجاوز السادسة، وأغلب الظن أن الحياة بدورها ستنحسر عن طرقات البلدة مع القدوم المبكّر لليل الشتاء. همد حماسه عندما بلغ باب الغرفة. فأي متعة سيجنيها من وراء تجواله في شوارع استسلمت للرتابة والضجر وانعدمت فيها سبل اللهو على أنواعها؟ فعلى طول المسافة التي قطعها، وهو قادم من محطة القطار، لم تسترع انتباهه سوى دار سينما مهجورة، حشرت نفسها بين بنايتين سكنيتين عاليتين بدتا وكأنهما قد احتضنتاها قسراً. وقد ساءه مشهد تلك الدار، التي تكومت أكياس القمامة أمام مدخلها، وتهشم زجاج شبّاك تذاكرها، وتمزّقت يافطة آخر فيلم عرض فيها وإن بقيت صامدة، تعلن، بما تبقى لها من حروف لم تنتزعها الريح ولم يغيّبها المطر، بأن "الحياة حلوة"... قد لا

تكون الحياة "حلوة" إلا على ذلك المنوال في هذه البلدة! فلمَ يتعجل لاستكشاف أسرارها، هذا إن كانت لها أسرار؟ اباريس هي؟ أم البندقية؟... تنهّد بالرغم منه وهو يستذكر المشاعر التي كانت تنتابه عندما كان يحطّ، للمرة الأولى، في واحدة من مدن الأحلام تلك: فراغ صبرة إزاء تباطؤ بقية المسافرين في مغادرة الطائرة. جريه المحموم في الممرات الطويلة، سعياً وراء استرداد متاعه. تلهفه للخروج من بهو المطار لاستنشاق هواء المدينة القادم إليها، لاستيعاب بعضٍ منها في رئتيه كمقدمة لاندماجه اللاحق بها. تذكر... وكاد أن يعدل عن مشروع نزهته. لكن فكرة البقاء أسيراً في تلك الغرفة المغمّة دفعت به إلى الخارج. "يبقى لي البحر...."، قال معزّياً نفسه وهو يقفل باب غرفته. وفوجئ عندما سمع كلمة "عفواً"؟ ملفوظة بصوت نسوي خفيض. استدار فلمح سيدة على مسافة أمتار منه. امرأة في العقد الرابع عن الأرجح، كانت تسترق النظر إليه وهي تنقّب في حقيبة يدها. "ما كنت أخاطب إلا نفسي"، قال بلهجة مازحة، وهو يبتسم في حركة إغراء عفوية. كانت المرأة واقفة في منتصف الممر المفضي إلى الغرف، قبالة باب موصد. دنا منها، ثم جاوزها قاصداً السلم الذي كان قد تسلّق درجاته العالية قبل لحظات. ولكن قبل أن يهمّ بنزوله، بادرت هي تلوّح له بمفتاح أفلحت أخيراً في إخراجه من حقيبتها، كأنها تبغي تبرير وقفتها في ذلك الممر. بادرة مجّانية ذهبت هباء: فمرهف، الذي كان قد أدار ظهره للمرأة، لم ينتبه لا لحركة يدها ولا للمفتاح.

"لماذا يتعين عليّ دوماً أن أبرر وجودي أمام الآخرين؟" سألت نفسها معاتبة. فهي تقيم في هذا الفندق منذ أسابيع، في حين أن الشاب الذي كان يفكّر بصوت عال طارئ حديثاً. فما حاجتها إلى إعلامه بأن وقفتها أمام باب غرفتها مشروعة، وقد كان من المفروض عليه، هو، أن يفيدها، ولو بكلمات مقتضبة، بأسباب تواجده على مسافة خطوات من غرفتها؟! أن يفهمها، بتعبير آخر، أنه نزيل جديد... ذلك أنه لم يسبق لها أن التقته، لا في البهو، ولا في قاعة الطعام؛ كان سيسترعي انتباهها حتماً. فشاب مثله يتميز بسهولة، بل بالضرورة، بقامته الطويلة والرشيقة أولاً، وبجمال وجهه الخارق ثانياً!... ما الذي جاء به إلى هذه البلدة الساكنة، وإلى "بانسيون العائلات" بالذات؟ لاسيما أن فصل الأمطار لم ينته وموسم البحر والاصطياف لم يأزف بعد. ألمقتضيات عمله قدم؟ أم... لملاقاة امرأة وقع في عشقها؟ "وما دخلي أنا؟"، قالت ناهرة نفسها؛ فهل نضبت مشاكلها كيما تهتم بمشاكل الآخرين؟ فهذا الصباح اتصل بها محاميها ليستفسر عما آلت إليه الوثائق التي كان قد أرسلها إليها للاطلاع والتوقيع. تلقت مكالمته وهي غارقة في دراسة ملفّ صعب ومعقّد؛ وسعياً وراء إنهائها سارعت بإعطائه وعداً بإعادة

تلك الوثائق إليه غداً، مع حاجب شركة التأمين حيث تعمل. تعجلت في قطع ذلك العهد فغدت ملزمة، معنوياً على الأقل، بإنجاز مهمتها هذه الليلة بالذات. لن تنفق ساعات طوالاً للنهوض بها؛ بل قد لا تحتاج إلى أكثر من دقائق معدودات. فقد سبق لها أن اطّلعت على الوثائق كافة، ولم يتبقَّ عليها سوى تذييلها بإمضائها. ترى، كيف سيتعين عليها أن توقّع؟ أتسترد شهرتها العائلية؟ أم تلجأ، ولو للمرة الأخيرة، إلى شهرة ما بعد الزواج؟ أتكتب "سلمى فخري" أم "سلمى الحاوي؟" إنها تبقى متزوجة ما لم يصدر الحكم بالطلاق؛ تبقى إذن "سلمى الحاوي"، ولكن لأسابيع معدودة، وبشرط أن تبادر، أولاً، إلى التوقيع على تلك الوثائق. خطوة أرجأتها أكثر من مرة مع أنها عازمة عليها، مصممة على اجتيازها. فقصتها مع رامز قد انتهت، ومنذ زمن. بل إنها لتتساءل، في بعض الأحيان، ان كانت قد بدأت فعلاً؛ أي إن كانت علاقة حب حقيقية قد جمعت بينهما يوماً. كانت تودّه وكان معجباً بها؛ لم تعد تودّه ولم يعد، هو، معجباً بها! ربما تلك كانت حدود حكايتهما... لم تعرف الحب الذي تقرأ عنه في الكتب أو تشاهد فصوله على شاشة السينما. لم تعرف مع رامز لا الشغف، ولا اللوعة، ولا الحيرة، ولا السعادة العارمة... ولم تبلغ معه، ولو لمرة واحدة يتيمة، ما يتفق الناس على تسميته بالسماء السابعة؛ ولم تكن حاله معها أفضل، في أغلب الظن، على صعيد التحليق في الأجواء السماوية. فهي لم تعشقه كي تتصرف معه كعاشقة. كانت تودّه فحسب، وقد ضلّلت نفسها عندما خلعت صفة الحب على مشاعر رقيقة، ناعمة، عذبة، وإنما فاترة.

كان بإمكانهما طبعاً أن يستمرا في علاقتهما الزوجية الرتيبة؛ فقد

تعايشا على مدى سبعة أعوام على نحو مقبول: شجارات عارضة، زيارات اجتماعية، رحلات موسمية، ومضاجعات نصف أسبوعية... برنامج لم يطرأ عليه تعديل إلا في الحالات القصوى. لكن، أفليست تلك حال معظم الأزواج؟ أقنعت نفسها بذلك، شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام. فأي فائدة ترجى من وراء التغيير، كانت تقول. وأغلب الظن أن رامز، بدوره، كان يكرّر العبارة عينها. لقد كانا يملآن سوية، وعلى نحو متساوٍ... وكانا سيملآن معاً، إلى أن يفرّق الموت بينهما، لو لم تتردد على عيادة رامز أرملة لعوب جاهزة للمغامرة...

لم تلم رامز؛ أو ما عادت تلومه بالأحرى. فالعلاقة التي أقامها مع تلك "المريضة" كانت عرضية، وقد سعى إلى إحاطتها بالسرية حرصاً على مشاعرها. وما كانت، بالفعل، ستعلم بها لو لم تتضافر الظروف على فضحها. فقد تعرّضت سيارة رامز لحادث سير على طريق البحر فيما كانت الأرملة الطروب تقودها. وقد ورد لذلك ذكر اسمها في محضر الضبط الذي حرّره الخبير، فذاع الخبر في شركة التأمين حيث تعمل وحيث كان رامز قد أمّن على سيارته... لم يحالفه الحظ، في الحقيقة! فتلك كانت المرّة الأولى التي يخونها، والمرّة الأولى التي يعهد فيها إلى عشيقته بقيادة سيارته. هذا ما ادّعى...

لماذا تلومه، في آخر المطاف، إن كان قد بحث عند سواها عن قدر من الفرح، عن قسط من السعادة؟ وكيف جاءت أصلاً ردة فعلها عندما بلغها نبأ خيانته؟ لم تغضب ولم تثر ثائرتها لنكثه بعهد وفائه بقدر ما استشاطت غيظاً لأنه أودع سيارته بين يدي تلك الغريبة! فقد حرّم عليها، هي، قيادتها خشية من أن يصيبها مكروه، السيارة طبعاً وليس

هي! رامز، طبيب الأسنان المتّزن، الحذر في كل حركة يقدم عليها، في كل كلمة يتفوه بها، في كل قرش ينفقه؛ رامز الحريص على سيارته حرصه على بؤبؤ عينه، المتأبي عن قيادتها فوق الطرقات الوعرة أو في الأماكن المزدحمة خوفاً على سلامة عجلاتها، ونوابضها، ومحركها، وزجاجها، وصاجها؛ رامز المتحصّن ضد الزّلات والنزوات والأهواء، ضَعُف أمام عشيقته إلى حد السماح لها بأن تجلس خلف مقود سيارته!

في كل مرة كانت تثير مسألة السيارة كان يخرج عن رزانته المعهودة ويسمعها قاسي الكلام؛ فبإلحاحها على هذا الوجه من خيانته إنما تقطع الدليل على ثانوية المكانة التي يحتلها في نفسها: فهي أكثر تمسكاً بحقها في قيادة السيارة من تمسكها بحقها في الانفراد بقلب زوجها. بقلبه، وعواطفه، وجسده... وكانت تجيبه على الدوام: أنت من قطع الدليل على ثانوية المكانة التي أحتلّها في قلبك بمنحك عشيقتك حقاً بخلت به عليّ... كانت صادقة حينها، أي على قناعة تامة بأن تهور زوجها العاطفي إزاء امرأة أخرى هو الذي آلمها في مسألة السيارة، وليس تربع غريمتها وراء مقود "الفيات" الرمادية الصغيرة. ولكن مع الأيام اضطرت إلى تصحيح الصورة بعض الشيء؛ إلى إدخال تعديلات عليها. فالسيارة ملكها كما هي ملك زوجها، وإن انفرد هو بقيادتها. وقد تعدّت تلك السافلة على حق ملكيتها عندما ساقت "الفيات"؛ ساقتها وعرّضتها لحادث أسفر عن تحطيم زجاج المصباح الأمامي الأيمن وعن تضرر غطاء المحرك ومروحته.

الصدمة، التي ألحقت الأذى بالسيارة، أيقظتها من حالة السبات الزواجي التي كانت قد استسلمت لها. اضطرتها إلى إجراء جردة لحياة

مشتركة دامت سبع سنوات، وإلى التسليم بضحالة ما سجل في باب الموجب. وبفعل هذه الصدمة، أدركت أيضاً، أنها قد شاخت؛ شاخت بسرعة وقبل الأوان؛ شاخت في الداخل ومن الخارج. هجَرَتها الحماسة وقاطعتها الأحلام، كما خبا الألق في وجهها والبريق في عينيها. وقد صعقت يوم خالها زبون جديد في الشركة سيدة في الأربعين وهي لا تزال دون الثالثة والثلاثين! عزمت عندها على الانفصال عن رامز؛ حسمت أمر زواجها منه بدون تردد يذكر. لو كان لديهما أولاد لاختلف الوضع. لكنها لم تنجب؛ لم ينجبا في الحقيقة. فبحسب الأطباء الذين ترددا عليهم، فإن كليهما مسؤول عن هذا التقصير. ربما كانت فرصها في الحمل ستكون أعظم فيما لو ضاجعت رجلاً أقوى من رامز على الصعيد الجنسي؛ وربما كان رامز سيفلح في منح الأمومة لامرأة أكثر منها خصوبة... افتراضات وتخمينات طويت صفحتها في مطلق الأحوال؛ غدت ملكاً لماضٍ انسحبت منه بلا أسف. فما بالها إذن تماطل في التوقيع على تلك الوثائق؟ فلن تباشر في بناء حياة جديدة ما لم تسوِّ، نهائياً، مسألة طلاقها. فهنالك أوضاع مالية يتعين الحسم فيها كيما يأخذ رامز ما له وتأخذ، هي، ما لها. وما لم تستخلص حقوقها المادية المرتقبة، فسيتعذر عليها استئجار شقة صغيرة وتأثيثها، ولحُكم عليها ، بالتالي، أن تمدد إقامتها في هذه الغرفة إلى أجل غير مسمّى. والحال أنها قد بدأت تضيق ذرعاً بحيّزها المحدود...

لاريب في أنها قد أحسنت الاختيار عندما انتقلت إلى "بانسيون العائلات" بعد هجرها دار الزوجية. فقد أمّنت لنفسها المأوى، مع وجبتي الإفطار والعشاء، بأجر مقبول تستطيع دفعه بمرتبها. والواقع أن صيغة

الفندق قد وافقتها على أكثر من صعيد؛ أعفتها من ضرورة الاستدانة لتجهيز دار جديدة، ولو على نحو بسيط ومختصر، وحرّرتها، علاوة على ذلك، من تبعات الأعمال المنزلية. فهي تجد غرفتها منظّفة وطعامها جاهزاً لدى عودتها من العمل. كما وفّرت لها، أيضاً، قدراً من الرعاية في ظرف كانت في أمسّ الحاجة إلى الشعور بعطف الآخرين. فصاحب الفندق رجل طيب، وزوجته تبقى ودودة رغم نزعتها إلى المشاكسة. صحيح أنها لم تصادق أحداً من نزلاء البانسيون الدائمين، لكن تواجدهم من حولها خفّف من وطأة وحدتها أيام الانفصال الأولى.

سمعت صوت سعال قوي فأدركت أن جارها زاهي قد عاد، هو الآخر، من العمل. ليلة الأمس اشتد سعال المسكين إلى حد أيقظها من نومها. إن الجدران الفاصلة بين الغرف لا تكتم الصوت مع الأسف، وربما سمعها بدوره تبكي في بعض الليالي. تخيلت قامته القصيرة، وجبهته الضيقة، وأنفه الغليظ، وأطلقت تنهيدة. لماذا دلل، سبحانه، عن تقتير شديد في منحه الجمال للبشر؟ لماذا لم يكثر من أمثال ذلك الشاب الوسيم الذي صادفته تواً؟ ترى، هل سيتناول عشاءه في الفندق؟

ألقت نظرة على المرآة التي توسطت دولاب غرفتها الخشبي، فشاورت نفسها في تغيير هندامها قبل الذهاب إلى العشاء.

لم تكن الساعة قد شارفت على السابعة والنصف حين قصد زاهي البستاني قاعة المطعم؛ قاعة مربّعة تطل بنافذة عريضة واحدة على البحر المجاور. أخذ مكانه المعتاد، بعيداً عن تلك النافذة، خوفاً من تسرّب الرطوبة إلى صدره المبتلي بداء الربو، وتهرباً من المدعو أكرم حداد الذي لا يطفئ سيجارة إلا ليشعل أختها. فتح الجريدة على عجل، على صفحة الكلمات المتقاطعة، وأخرج قلماً من جيب سترته وهو يحرّك شفتيه في قراءة صامتة. ففي قاعة المطعم ينتشر النور الكهربائي بسخاء، وزاهي، الذي ضعف بصره قليلاً بفعل السنين، غدا يحتاج إلى ضوء وهّاج كيما يقوى على القراءة ليلاً. وقد اشتكى أكثر من مرة للست أمينة من شحاحة النور في غرفته. فكيف يحلّ كلماته المتقاطعة على ضوء مصباح من أربعين شمعة؟ غير أن جوابها كان واحداً على الدوام: غرف النوم جعلت للنوم لا للسهر ولا للمطالعة! المشكلة أنه لا يستطيع أن يمارس هوايته إلا ليلاً. لا لأن عمله لا يترك له متّسعاً من الوقت في أثناء النهار، بل لأن زملاءه في الدائرة يبخلون عليه بصحفهم. وإن سمحوا له بتقليبها نهوه، بالمقابل، عن التشطيب عليها لحلّ كلماتها المتقاطعة... وتبقى جريدة حاكم وحدها في تصرفه. فصاحب الفندق

يتخلى له عن صحيفته اليومية بكل طيبة خاطره، ولكن بعد أن يفرغ من مطالعتها. أي بعد عودة زاهي من عمله، وبالتالي بعد هبوط الليل. حل "يبقى مقبولاً"، بالرغم مما ينطوي عليه من سلبيات، لأنه يوفّر عليه إنفاقاً مجانياً. فلماذا يدفع ثمن الجريدة ما دامت الاستفادة منها ممكنة من دون التفريط بقرش واحد؟... هذا لا يعني أنه بخيل؛ أبداً! وإنما هو حريص على حسن التصرّف بدخله. ولئن دأب على ادّخار جزء من مرتبه فتأميناً لشيخوخته. فمن الذي سيرعاه ويتولى الإنفاق عليه عندما سيتقاعد، مكرهاً، عن العمل؟ أشقيقته الصغرى التي تشكو له ضيق ذات يدها كلما زارها؟ أم أخته الكبرى التي إن دعته صدفة إلى الغداء عندها راقبت عن كثب ما يصبُّ في صحنه، ورمته بنظرة زاجرة إذا ما اختار لنفسه قطعة أكبر مما ينبغي من اللحم، أو جدّد طلبه من طبق الدجاج أو الشواء... فليس لديه أولاد يتكفّلون بستر شيخوخته. لقد تزوج ثم ترمّل من غير أن ينجب. أجهضت زوجته، رحمها الله، مرتين على التوالي ولم تحمل بعد ذلك. لقد "حرد" رحمها، على حد زعم أمها؛ أصيب بورم ليفي حسب تشخيص الطبيب الذي تولى معالجتها. حرد أو ورم، المهم أنه بقي بلا ذرية. ولم يدرك فداحة مأساته إلا بعد وفاة زوجته التي غادرته قبل عامين ونيف... لم يعد له بيت بعد رحيلها؛ فالبيت ليس بسقفه وجدرانه، بل بالحياة التي تنبض فيه؛ بالصحبة الطيبة التي يؤمّنها؛ بالدفء الذي يوفره؛ بروائح الطبخ التي تبلغك وأنت لا تزال على سلّمه؛ بأصداء المذياع التي تصلك بوضوح وأنت ترنّ جرس بابه مع أن مفتاحه في جيبك. فلمَ تفتح بنفسك ما دام هناك من يرحب بأداء هذه المهمة؟... لقد يتّمته ثريا بوفاتها. ذهبت وأخذت البيت معها. لم تترك

له فيه ولداً يتعزّى به... لو لم تجهض بعد زواجهما بخمسة شهور لكان له الآن ابن، أو ابنة، في الثلاثين؛ لكان له أحفاد؛ لأمكنه أن يعوِّل على أولاده وأولاد أولاده لرعايته في شيخوخته. لكن القدر لم يشأ أن يرزق زاهي البستاني وثريا عجمي أطفالاً. هي، اعتمدت عليه إلى أن وافتها المنية. وهو، على من سيعتمد في ساعات شدّته؟ لو لم يتمكن من ادّخار بعض المال ليومه الأسود لكان في وضع من يسير عارياً في عزّ الشتاء.

صيغة الفندق وافقته، مادياً ومعنوياً. فلماذا يستمر في دفع إيجار شقّة من ثلاث غرف، وفي تسديد فواتير الماء والكهرباء والاشتراك بالهاتف، وفي تحمل ضريبة الحراسة والنظافة، وفي شراء القهوة والسكاكر والسجائر للضيوف، وقد غدا يعيش بمفرده، لا يحتاج إلى أكثر من سرير ينام فيه وإلى دولاب يوضّب فيه ملابسه المتواضعة؟ لقد وفّر بانتقاله إلى "بانسيون العائلات"؛ وعلاوة على ذلك، ضمن لنفسه وجبة ساخنة عند المساء، يتناولها بصحبة بقية النزلاء. صحيح أن بعضهم صعب المعشر، على غرار أكرم حداد، صاحب السيجارة السرمدية؛ وبعضهم الآخر صموت، منطوٍ على ذاته، مثل صالح المرشد، الطالب الريفي الذي اعتاد على مشاركته طاولته. عجيب أمر هذا الشاب. لا ينظر لا يميناً ولا يساراً، بل إلى الأمام وهو خافض الرأس! فكأن الدنيا بما فيها لا تستحق التفاتة منه... هكذا يمشي في الطريق، وهكذا يتجول في الفندق، وهكذا يجلس إلى الطعام. توهم، في بداية عهده به، أنه شاب مغرور، متعالٍ، بل متعجرف؛ لاسيما وأن حاكم كان قد عرّف به، يوم قدومه، على أنه طالب في كلية الطب. وقد لبث، على مدى أسابيع عدة، يطلق عليه لقب "طبيب المستقبل". غير أن الهالة

التي كان حاكم قد أحاط بها رأس الشاب سقطت وتلاشت عندما اتضح أن صالح ما هو إلا طالب في معهد الطب البيطري!... لن تمضي لحظات حتى يحضر هو الآخر. فهو، على غراره، يستبق موعد العشاء للاستفادة من نور قاعة المطعم. لا لحلّ شبكة كلمات متقاطعة، بل للمذاكرة. ذلك أنه يحمل معه كتبه وكراساته، ويسند بعضها على الطاولة، غير مبالٍ بالإزعاج الذي يتسبب فيه. لا يعتذر من زاهي الذي يضيق المكان بجريدته فيضطر إلى طيِّها؛ ولا يجيب عن الأسئلة التي قد يطرحها عليه هذا الأخير. فإذا ما سأله عن اسم عاصمة إفريقية من أربعة أحرف، أو عن حيوان مفترس من ثلاثة أحرف، غير النمر أو الأسد، اكتفى بحركة من رأسه ينفي بها معرفته بالأمر... فليستفد من انفراده في احتلال الطاولة وليفرش جريدته بحرّية مطلقة في انتظار مجيء "بيطري المستقبل". "شاعر عربي عباسي من عشرة أحرف، من تراه يكون؟" تساءل زاهي البستاني وهو يعضّ على قلمه.

لو قيّض لزاهي البستاني أن يشاهد بأم عينه "بيطري المستقبل"، في اللحظة التي جاء فيها بذكره، لربما اضطر إلى أن يعدّل قليلاً في معالم الصورة التي يحملها عنه. فصالح المرشد لا ينظر دوماً إلى الأمام وهو خافض الرأس، بدليل أنه ما كان يكفّ عن مطّ عنقه يميناً تارة ويساراً طوراً. كان، في الواقع، يؤدي حركة مكوكية على رصيف "شارع الميناء"، يقطعه ذهاباً وإياباً، متباطئاً عندما يقترب من مخزن "سيدتي الجميلة" للملابس النسائية. لم يكن يتوقف عند واجهته الزجاجية العريضة، بل يسترق النظر إلى ما يدور خلفها وهو يتابع سيره، حتى يبلغ نهاية الرصيف فيقفل عائداً. لو قيّض لزاهي البستاني أن يرافق يومياً "بيطري المستقبل"، عندما يكون في طريق عودته من المعهد إلى الفندق، لأدرك أن هذه المناورات الغريبة تشكل القاعدة لا الاستثناء في سلوك الشاب الريفي. فمخزن "سيدتي الجميلة" هو ملتقى صبايا البلدة ونسائها؛ حسناواتها وأنيقاتها بالأحرى. وصالح، المتعطش إلى الوجود النسوي، إلى العالم الأنثوي العطر، العذب، الدافئ، يجد نفسه مشدوداً إلى ذلك المخزن، منجذباً إليه انجذاب الفراشة إلى مصدر النور. لم يتجرأ مرة واحدة على اجتياز عتبته مع أن عهده به يقدر بالأشهر، لا

بالأسابيع أو الأيام. فقد حلّ في هذه البلدة في مطلع الخريف، لضرورات الدراسة، وأقام فور وصوله في "بانسيون العائلات" نزولاً عند إرادة والده. فثمة صديق لهذا الأخير كان قد نصحه بهذا الفندق "الذي يسوده جو عائلي ولا يؤمّه إلا أكارم الناس". ولما كان غالب المرشد، والد صالح المرشد، حريصاً على أن يوفّر لابنه جواً عائلياً في غربته، حرصه على أن يدرجه في فئة أكابر القوم ووجهائهم، فقد سارع يأخذ بنصيحة ذلك الصديق. أفلم يعانِ، هو، الكثير ليرتقي السلم الاجتماعي؛ أو بالأحرى، ليرتقي درجتين أو ثلاثاً منه، بفضل ما جمعه من مال وما نسجه من علاقات مع أعيان قريته والقرى المجاورة، من أغوات إلى مخاتير إلى رؤساء مخافر؟... قدّم لهم الكثير من الخدمات في سبيل نيل رضاهم؛ ولئن نجح في الانضمام إلى حلقاتهم في خاتمة المطاف، فليس باعتباره واحداً منهم وعديلاً لهم. لقد قبلوه، ولكن ما فتئوا يذكّرونه بأنه دونهم مرتبة. لم يفلح في أن ينتزع منهم معاملة الند للند. لكن حيث فشل هو، لأن شساعة الشوط الذي كان عليه أن يقطع تجاوزت طاقاته سوف ينجح صالح الذي اجتاز أكثر من نصف الطريق بحكم نشأته: فقد ولد عن أب ميسور أدخله المدرسة ودفعه إلى متابعة تحصيله، في حين بلي هو بأب فقير معدم، رماه بين البهائم، وحكم عليه بالعمل الشاق في حقول الآخرين وزرائبهم. سوف ينجح صالح في بلوغ الهدف المنشود... شرط أن يتحرر من خوفه وخجله، ومن نزعته إلى الامّحاء، إلى الانكماش على نفسه! إنه ضعيف الشخصية، لا يعرف كيف يتبجّح ويتشدّق مع أن الناس لا تفهم لغة غير هذه!... لم يرث عنه شيئاً من صفاته، لا جرأته، ولا إقدامه، ولا حنكته. لقد جاء على صورة أمه، الصامتة أبداً،

والمطأطئة الرأس أبداً، والتي ما كان سيفكر بعقد قرانه عليها لولا قطعة الأرض الخصبة التي كانت تملك، ولولا المسكن الذي شُيّد على تخوم تلك الأرض... ملّ من عبارة "ارفع رأسك" التي كان يكررها كلما وقعت نظراته على بكره. فقد كان صالح يطيعه في كل أمر إلا في وضعية هذه الرأس. لكأنه فطر، بالولادة، على حنْيها؛ لكأن تشنجاً متأصلاً في عنقه يمنعه من التحكم بحركتها...

لكن لو قيّض لغالب المرشد أن يباغت بكره وهو يتلصص على الحسناوات داخل مخزن الملابس، لاضطر، هو الآخر، إلى أن يعيد النظر في حكمه على طالب معهد البيطرة. وبخاصة لو شاءت الصدفة أن يفاجئه عشية ذاك اليوم بالذات. ذلك أن المخزن عجّ بالفتيات؛ وقد ضاق حيّزه بأصداء ضحكاتهن وتعليقاتهن المرحة، ففاضت وانتشرت على الرصيف حيث راح صالح يؤدي حركته المكوكية بسرعة وحمية فائقين، ويدير عنقه ويمطّه وكأنه لولب، وقد انتشى حتى الثمل بتلك الأصوات التي كان يغبّها غباً. ولاريب في أنه كان سيواظب على ممارسة ذلك الطقس، ويتمادى فيه إلى أن يغادر رفّ الفتيات مكان تجمّعه، لو لم يصطدم بشاب كان يسير بعكس اتجاهه. شاب طويل القامة، رمقه بنظرة متفحصة، فيما كان يتمتم، هو، بارتباك بكلمات اعتذار. ومع أن الشاب عقّب على كلمات اعتذاره بعبارة "لا بأس"، بل ابتسم له بلطف، فقد اعتبر نفسه وقد ضبط بالجرم المشهود من قبل شخص يكبره سناً. انحنت رأسه على نحو تلقائي وانطلقت به قدماه على الطريق المؤدية إلى الفندق. ما عاد ينظر لا يميناً ولا يساراً، ولا يحيد في سيره عن خط مستقيم وهمي رسمته له يد خفية.

"هل أنا من بكّر أم أن الست أمينة هي التي تأخرت؟". طرح أكرم حداد على نفسه هذا السؤال وهو يحتلّ مكانه في جوار نافذة المطعم اليتيمة. أولع على مألوف عادته سيجارة وجال بنظراته على القاعة، فتأكد له أن نصابها لم يكتمل بعد. هو الذي بكّر إذن، على غير عادته. لحسن الحظ. فهذا المساء سوف ينال نصيبه من الحساء غير منقوص. ذلك أن الست أمينة تصبّ حساءها اللذيذ بسخاء لأول القادمين وتضنّ به، مرغمة، على المتخلّفين من نزلاء الفندق المداومين. عليه هو، في المقام الأول، باعتباره المتخلف السرمدي عن موعد العشاء. وقد اشتكى مراراً من هذا الإجحاف بحقه، غير أن تظلّمه لم يأت بنتيجة. "يدي ليست ميزاناً، كانت تجيبه ربّة الفندق السريعة الانفعال؛ إن كنت ترغب في حصة أوفر فشرِّفنا بقدومك في ساعة أبكر. فأي عمل وراءك؟.." لا عمل لديه فعلاً. لقد أحيل على التقاعد قبل عامين، بعد أن خدم أربعين سنة في الجمارك، متنقلاً من مركز حدودي إلى آخر، ومن بيت وظيفي إلى مثيله. مضى الوقت في غفلة عنه. لم يستقر كي يتزوج، ولم يتزوج كي يرزق أولاداً. عاد إلى مسقط رأسه، بعد أن جال على مراكز حدود البلد قاطبة، ليكتشف أن أحوال مدينته قد تبدلت تماماً في غيابه. رحل

عنها أناس وحل مكانهم آخرون. الذين رحلوا كانوا من أقاربه ومعارفه، أما الذين قدموا فغرباء عنه. الحلم الذي كان قد رافقه في ترحاله تلاشى واضمحلّ. فلماذا يشيّد، بما جنى وادّخر، بيتاً جميلاً؟... أليعاني أكثر بعد من وطأة وحدته؟ فمن الذي سيزوره فيه؟... من الذي سيشاركه جلساته في حديقة غطّى الياسمين سياجها؟ لا، إن صيغة الفندق كانت أفضل وأنسب؛ هنا، على الأقل، لا يشعر بنفسه ناسكاً، بل قل نازلاً في قبره قبل الأوان!... "بانسيون العائلات"... إنه لأمثاله، من قليلي الحظ الذين لا عائلة لهم، ولا شريك ولا ذرية، لا لمن هم في مثل وضع غازي غانم! فلماذا اختار هذا الأحمق أن يعيش في فندق وهو ينعم بصحبة طيبة؟ هل عجزت الست ليلى عن أن تملأ له فراغ بيته بعد زواج ابنتهما الوحيدة؟ نِعْمَ السيدات هي! يصعب على المرء في الحقيقة أن يخالها جدّة. إنها في الخامسة والأربعين على الأرجح، أي في زهرة العمر. مع ذلك يعاملها زوجها الدعي وكأنها قد ودّعت الشباب منذ دهر! كأنها لم تعد امرأة، بل غدت جدّة فحسب! فما الحجّة التي يشهرها لتبرير انتقالهما إلى الفندق؟ "إن صيغته توافق ليلى أكثر، يقول ويكرّر؛ فهي توفّر عليها أعباء منزلية ما عادت تقوى على النهوض بها"!... الحق أن صيغة الفندق توافقه هو بالأحرى؛ فهي تضمن له جمهوراً لحكايات بطولاته الملفّقة! فغازي غانم في حاجة ملحّة ودائمة إلى آذان صاغية. يخال إليه أن كل ما يحصل معه خارق ومثير وخليق، بالتالي، بأن يروى. لا يملّ من الحديث عن نفسه كما لو أنه مركز الكون؛ ويفرض هذا الحديث على كل من ابتلي بحضوره، أشاء أم أبى. فحتى لو آثرت الابتعاد عنه، حتى لو جلست، على سبيل المثال، في الطرف الآخر

من المطعم، فإن صوته الجهوري يتكفل بإبلاغك بفحوى ذلك الحديث، بل قل بدقائقه. بفعل أي معجزة لم يلعلع هذا الصوت بعد؟... ونظر أكرم حدّاد إلى ساعة يده. كانت عقاربها تشير إلى السابعة والنصف. لقد بكّر حقاً بالمجيء هذا المساء، خلافاً لعادته. ذلك أنه مولع بلعبة النرد ولعه بالسيجارة. بعد ظهر كل يوم يقصد مقهى "السندباد" ليمارس هوايته. وفي المقهى يمضي الوقت بسرعة مذهلة، في مثل لمح البصر كما يقال. تأزف السابعة والنصف على نحو مباغت فيهرول إلى الفندق. ومع أن "السندباد" غير بعيد عن "بانسيون العائلات"، ومع أنه يحث الخطى في طريق العودة، فإن دخوله إلى قاعة المطعم غالباً ما يقترن بصوت قرقعة الملاعق وهي تجرف آخر ما في الصحون من حساء...

أخذ نَفَساً من سيجارته وهو يسترق النظر إلى زاهي البستاني الغارق في حل كلماته المتقاطعة. بعد ثوان سيحوِّم دخان لفافته حول ركن الأرمل الشحيح، فيبادر هذا الأخير إلى طرده بحركة تلقائية من يده. الغريب أنه يؤدي الحركة عينها، على نحو لاشعوري ولابد، عندما يجرّ صالح المرشد كرسيه ليجلس قبالته. لكأنه يودّ أن يبعده عنه هو الآخر... ها هو يلوِّح بيده، تعبيراً عن نفوره من الدخان الذي لفّه، ومن الطالب الذي كان يهمّ بالجلوس قبالته.

وفيما كان أكرم يتساءل، للمرة الثانية، عن أسباب تخلّف الزوجين غانم عن موعد العشاء، ويستغرب، للمرة الألف، دوافع تعلّق امرأة ناعمة وعذبة كليلى غانم بشخص دعي وغبي وأناني مثل غازي غانم، أطلّ، عند مدخل المطعم، شاب يرتدي كنزة صوفية بيضاء بانت، من وراء كتفه، صلعة حاكم المميزة. ثم ظهر وجه هذا الأخير، منفرج

الأسارير. كان صاحب الفندق يحدّث الشاب الذي انشغل، هو، بتفحص القاعة المريعة. حدّق للحظة بزاهي البستاني الذي كان يحرّك قلمه بسرعة على الجريدة التي فرشها أمامه؛ وندّت عنه ابتسامة طفيفة وهو يلمح صالح المرشد الذي أسند كوعه على المائدة وبدا وكأنه غارق في مراجعة ما دوّنه في كرّاسه. وتقدم الشاب، يتبعه حاكم، باتجاه السيدة سلمى، وحياها بانحناءة من رأسه، فردّت على تحيته بابتسامة خجولة. توقع أكرم أن يجلس الشاب إلى مائدتها، ولاسيما أنها، على غراره، تنفرد باحتلالها، غير أنه لم يفعل. دنا منه، هو، وعندما أصبح على مسافة خطوتين استأذنه بمشاركته جلسته. رحّب أكرم، غير أنه حرص على أن يوضّح، وهو يلوّح باليد التي أمسكت باللفافة، أنه لا يكفّ عن التدخين، حتى في أثناء الطعام. "لا بأس"، عقب الشاب وهو يجلس في قبالته. بدا حاكم وكأنه راغب في الانضمام إليهما. ولكن فيما كان يبادر إلى جرّ كرسي من خلف طاولة مجاورة ظهرت السيدة أمينة ومعها وعاء الحساء. عدل حاكم عن مشروعه وهمّ بمغادرة المطعم. فهو لا يتناول عشاءه مع الزبائن.

استبشر أكرم خيراً بقدوم الشاب؛ فقد يتضح جليساً لطيف المعشر. ثم إن عدم انزعاجه من الدخان نقطة إيجابية تسجل لصالحه. ذلك أن معظم النزلاء يتأففون منه، وعلى نحو معلن. فهذه آخر موضة!... موضة تروّج لها الصحف والإذاعات والتلفزيونات التي لا تكفّ عن التهويل من مخاطر التدخين. لكأن الخلود سيكتب للإنسان بمجرد ابتعاده عن السيجارة!... لكأن ليس للمنية ألف باب وباب لتدلف منه وتوافيه في اللحظة التي تشاء!... الشاب مهذب، غير أنه صموت. لم

ينبس بكلمة واحدة بعد أن عرّف بنفسه. مرهف؟ اسم غريب. كل ما فيه في الواقع مرهف وغريب. وسامته، دقة ملامحه، بياض بشرته... وانسلاخه عن العالم المحيط! فحتى الست أمينة لم تفلح في جذب اهتمامه، في انتزاع عبارة واحدة منه. ففيما كانت تصبّ الحساء في صحنه كان هو ينظر في اتجاه النافذة، ساهماً، غافلاً عما يدور من حوله. خصّته بأكثر من نصيبه، من قبيل الترحيب ولابد، وكانت ستتكرّم عليه بالمزيد لو لم يبادر أكرم إلى رفع صحنه صوب يدها القابضة على المِغْرفة ليذكرها بوجوده.

كاد أن ينتهي من تناول حسائه والشاب لا يزال يحدّق في النافذة، سارحاً مع أفكاره. ولم يُقدم على الإمساك بملعقته إلا بعد أن نبّهه قائلاً: "سوف يبرد طعامك".

عندما آوت أمينة إلى فراشها في تلك الليلة قالت لحاكم إن النزيل الجديد بدا لها مأخوذاً بمنظر البحر على نحو غير مألوف. فقد تسمّرت عيناه على النافذة طول فترة العشاء، وكأنهما سحرتا بما تشاهدان. ولمّا أجابها حاكم، من قبيل المشاكسة: "يقيني انه لم يميّز شيئاً في عتمة الليل"، ردّت على الفور: "وما أدراك؟ ربما تجلّى له البحر، ولو من بعيد، على نور منارة المرفأ... بل ربما أضاءه له القمر!" فتمتم حاكم "ربما"، قطعاً للسجال.

ألأن عبارة أمينة ظلّت عالقة في لاشعوره رأى حاكم ذلك الحلم الغريب؟ فقد ألف نفسه يتوسط ساحة مترامية الأبعاد فرشت بمعدن فضّي وهّاج. وفجأة تكسر المعدن من تحت قدميه، وكأنه لوح رقيق من الزجاج، وتحولت الساحة برمتها إلى بحر زئبقي، ووجد نفسه مغموراً في أمواجه التي لم تلبث أن رفعته كمن يُرْفَع على الأكفّ. أحس باهتزاز المياه في ظهره، فدبت حيوية في كيانه برمته. راح يجذّف بذراعيه وينزلق فوق بحر غدا مطاطياً، لدناً ودافئاً كجسد امرأة. وبان له القمر؛ كان بدراً، وضاءً وصافي البياض. وإذا به يبتسم له، على غرار ما يفعل في رسوم الأطفال. ثم راح يقترب منه، يتضخم ويقترب منه، فيما كان

هو يجذّف بإيقاع متسارع وينشد بأعلى صوته: "نحن والقمر جيران". أكان يغني أم يشخر؟ فقد أيقظته أمينة من حلمه الجميل بلكنة في جنبه أرفقتها بعبارة: "ما هذا الهدير؟ قد تعجز قاطرة عن إحداثه!".

"ليس من عادة سمائنا أن تبرق وترعد كل يوم. غداً يعود الطقس جميلاً، بل ربما بعد ساعة أو ساعتين" تطوّع حاكم لإعطاء هذه الإيضاحات فيما كان يصبّ الشاي لمرهف ويوزّع، على الطاولة، أمامه، الأطباق الصغيرة المحتوية على الزبدة والعسل واللبنة والزيتون. فلئن كانت أمينة تهتم بالعشاء، فإن شؤون الإفطار تبقى من اختصاصه... كانت الساعة قد شارفت على التاسعة والنصف. وباستثناء مرهف، الذي حضر لتوه، لم يبق في المطعم سوى سمير بحري الذي كان قد انتهى من تناول إفطاره وانشغل بترتيب محتويات حقيبة جلدية صغيرة. سمير ينفرد بوضع مميز بين نزلاء الفندق؛ فلا هو بالزبون الدائم ولا هو بالزبون العارض. منذ ثلاثة أعوام أو أكثر وهو يجيء إليه مرتين في الشهر لضرورات عمله. يقضي فيه ليلتين ثم يبارح. وقد وصل عصر الأمس من العاصمة، حيث مركز شركة الأدوية التي يعمل لحسابها، حاملاً بيد حقيبة ملابسه المصنوعة من نسيج مشمّع بنّي، وبالأخرى "حقيبة الشغل" الجلدية، المحتوية على النماذج الطّبية التي سوف يوزعها على أطباء البلدة. وكان منهمكاً في التنقيب في هذه الأخيرة عندما تنبه إلى عودة حاكم إلى قاعة المطعم، حاملاً وجبة إفطار فوق صينية معدنية. استرق

النظر إليه وهو يحوم حول النزيل الجديد، واستغرب أسباب ابتسامه: فلماذا غلب عليه المرح في حضور شاب تلبّس القنوط ملامحه؟

أحكم سمير إقفال حقيبته ونهض بعزم وتصميم. كان قد بلغ باب القاعة عندما استدار وأعلن، موجهاً كلامه إلى حاكم: "سوف أتناول عشائي في الفندق... وسوف أغادر غداً صباحاً". هزّ حاكم برأسه موافقاً؛ وما ان غاب سمير عن ناظريه حتى انحنى قليلاً صوب مرهف وساره قائلاً: "لم يحصل مرة واحدة أن تعشّى الأستاذ سمير خارج الفندق أو أمضى فيه أكثر من ليلتين. مع ذلك تراه دائماً يحرص على التأكيد على مواعيد حضوره وعلى مواعيد مغادرته...". ارتسمت ابتسامة طفيفة على شفتي مرهف، فتشجع حاكم وسحب كرسياً وجلس في قبالته. وللحظات بقي يتأمله وهو يفرش الزبدة بتأنٍ فوق كسرة من الخبز؛ كانت أصابع الشاب طويلة ونحيلة، وكانت بشرتها بيضاء ورقيقة، أشبه ما تكون ببشرة الفتيات. كان حاكم قد اسند يمناه على الطاولة فبانت له أصابعها غليظة، جلفة، منتفخة. كاد أن يسحب تلك اليد ليخفيها، لكنه عدل. وبلهجة من يبوح بسرّ بالغ الأهمية قال: "لدينا خادم في الفندق علاوة على أم وليد التي تهتم بتنظيف الغرف وتساعد الست أمينة في إعداد العشاء. ولئن توليت بنفسي تقديم طعام الإفطار للنزلاء، فحرصاً مني على النهوض شخصياً بهذه المهمة". لم يعلّق مرهف؛ ربما لأنه كان يمضغ قطعة الخبز المطلية بالزبدة. تابع حاكم وهو ينقر على الطاولة بأصابعه: "لم أكن على الدوام ربّ عمل؛ أعني صاحب فندق. بدأت في المهنة من أسفل درجات سلّمها. كنت أغسل الآنية في مطعم فندق كبير في العاصمة. أُسرِتُ في طابقه الأرضي على مدى

أعوام ثلاثة، أستلم الصحون والكؤوس قذرة وأعيدها نظيفة برّاقة. كنت أستشفّ ما يدور من أحداث في الطوابق العلوية من خلال ما يحط عندي من فضلات. فإذا ما جاءتني بقايا خروف محشي استنتجت بأن مأدبة عامرة قد أقيمت على شرف مسؤول أو وجيه. وإذا ما وُجدت على الآنية طبقة لزجة من الكريما البيضاء أدركت أن عرساً قد أقيم..." وتردد حاكم قبل أن يضيف: "وإذا ما بانت على الكؤوس آثار أحمر شفاه اشتممت حضوراً نسوياً". ابتسم مرهف فأضاف حاكم: "بعد ثلاثة أعوام من العمل الدؤوب حصلت على أول ترقية. فُرزِتْ لخدمة الغرف وغدوت على احتكاك مباشر مع النزلاء. آه يا سيدي! لو تعلم ما يدور في غرف الفنادق الكبرى! لاريب في أن عملي كان يقتصر على حمل المتاع وتلبية الطلبات الطارئة؛ بيد أن تواجدي في الممرات المفضية إلى تلك الغرف مكنني من تخمين ما يدور في سرّها... قد أحدّثك يوماً عن المغامرات العاطفية لبعض مشاهير هذا البلد؛ فقد كنت شاهداً عليها". وحاول حاكم أن يستقطب نظرات الشاب، للوقوف على وقع اعترافاته، غير أن مرهف بدا منشغلاً عنه بتحريك السكر في قدح شايه. تابع، مع ذلك، يقول: "لم يستمرّ عملي الجديد أكثر من عام واحد. فبفضل جملة من الظروف المؤاتية نقلت إلى المطعم وكلفت بخدمة الموائد. توطدت علاقتي مع النزلاء إذ غدوت أتبادل أطراف الحديث معهم، ولاسيما ساعة الإفطار. ففي الصباح يكون المرء أكثر استعداداً للدردشة وللمحاورة؛ فلا أعصابه تشكو من توتر، ولا مزاجه من كدر. ولئن سمحت لنفسي اليوم بالجلوس إلى مائدتك، وبمسارتك بلا كلفة، فلأني واثق من أنك لن تستاء كثيراً من ثرثرة عجوز مثلي بعد الليلة الهانئة التي أمضيتَها. لو فرضت عليك حضوري ساعة العشاء لربما اختلف الأمر".

كان حاكم سيفيض في الكلام في موضوع الفندق العزيز على قلبه لو لم يخشَ من الإثقال على الشاب، حتى في ساعة الإفطار. فالنزيل الجديد لم يشجّعه بعبارة، ولا حتى بكلمة واحدة، على الاستمرار في حديثه. كان بوده أن يعترف له، مثلاً، بأنه لم يوظّف ما ادّخره خلال سنوات طويلة من الكد لاقتناء هذا البانسيون إلا شغفاً وولعاً بدنيا الفنادق. كان بوده أن يشرح له، أيضاً، أن عالم الفنادق الكبرى، الذي أنفق فيه عقوداً من عمره، لا يمتّ بصلة - ويا للأسف! - إلى الأجواء السائدة في "بانسيون العائلات"... إن الحلم الذي حققه ما هو إلا بديل بائس عن الحلم الذي طالما سعى خلفه. فنزلاء بانسيونه أناس طيبون، ولكن عاديون. فأين حيواتهم الرتيبة من دنيا وجهاء تلك الفنادق! وأين وضاعة أحوالهم المادية من عزّ أولئك الرواد وبذخهم! فهل من مجال للمقارنة بين زاهي البستاني الخسيس، الحريص على توفير ثمن جريدته، وبين موفّق بك الرحبي الذي إن أعجبته امرأة أولع سيجارتها بورقة المئة؟ أو بين الست سلمى فخري الحاوي، التي تخاف من خيالها، وبين بديعة الشلبية التي كانت تخلب قلوب الرجال بجمالها وتنفض جيوبهم بدهائها؟ وهل حصل أن استضاف فندقه، ولو لمرة واحدة يتيمة، بعضاً من فتيات الأسر العريقة اللاتي ينشرن الغبطة والبهجة حيثما حللن؟... كان بوده أن يفاتح الشاب بمشاعره ومشاريعه، وكيف أنه يتوق إلى أن يجعل من "بانسيون العائلات" صورة مصغّرة عن فنادق عهد شبابه. ولكن ها هو مرهف يمسح فمه بالفوطة الورقية ويتأهب للرحيل. انتهى من تناول إفطاره والصحون لا تزال عامرة أمامه. لم يذق اللبنة على الإطلاق، ولم يتناول حبّة زيتون واحدة. "إنه ابن ذوات"، قال حاكم بينه

وبين نفسه، ذلك أن من عادة نزلائه أن يأتوا على آخر ما تحتويه صحونهم. وبقدر من الفضول سأل: "ربما وراءك عمل؟ فقد أُخذتُ بالكلام وأطلت عليك". "لست على عجلة من أمري"، أجاب الشاب بدون أن يفصح إن كان وراءه عمل أم لا. أولع سيجارة بعد ذلك ونهض. وفي اللحظة عينها دخلت عليهما أمينة. ألقت التحية على مرهف ثم قالت لزوجها، معاتبة: "كاد النهار ينتصف وأنت لا تزال في أرضك، متى ستذهب إلى السوق؟ لقد أعددت لك لائحة بالمشتريات... اسمع، ان لم تتوفق ببإذنجان جيد فاستعض عنه باللوبياء". "ولماذا لا نسأل الأستاذ مرهف إن كان يرغب في طبق بعينه؟"، استفسر حاكم. "آكل من الموجود"، أجاب الشاب قبل أن يستأذن بالانصراف. وما كاد يتوارى عن أنظار الزوجين حتى بادرت أمينة إلى التعبير عن احتجاجها: "ولماذا ينبغي أن نسأل الأستاذ؟ ومتى كنا نستأنس برأي نزلائنا؟ يعني كل واحد يطلب طبخة ودبِّري يا أمينة أمرك!". فردّ حاكم بشيء من التذمّر: "لماذا يتعين عليك دوماً أن تعارضي؟... ربما كان الشاب يشتهي أكلة محددة، فأي ضرر إن أعددتها له؟". "يعني إن اشتهى الأخ أكلة سلطان إبراهيم، أجابت أمينة، فهل ستسارع إلى تأمينها له؟... يأكل من الموجود كما تفضل وقال، شأنه شأن الآخرين". "مرهف ليس كالآخرين"، ردّ حاكم معترضاً: "وبماذا يختلف عنهم؟"، استفسرته زوجته بنبرة هازئة. "لست أدري، أجاب حاكم؛ كل ما أعرفه هو أنه مختلف".

على الرصيف العريض الذي يحاذي "بانسيون العائلات" وقفت سيدة رشيقة القامة، باسمة الوجه. اختطفت النظر إلى مرهف، الخارج من الفندق، متوقعة أن يبادرها بالتحية؛ ولمّا لم يفعل، ارتبكت فدارت على نفسها لتعطيه ظهرها. تذكر الشاب لحظتها أنه قد لمحها ليلة الأمس، فيما كان يصعد إلى غرفته، فأدرك أنها من نزلاء الفندق. أراد أن يعوِّض عما بدا منه من تقصير فتعمّد التحرّش بها. دنا منها، حيّاها، وطلب منها أن ترشده إلى كورنيش البحر، موضحاً بأنه غريب عن البلدة. ولكن قبل أن تفتح السيدة فاها لتجيب عن سؤاله، كان صوت جهوري يرتفع في ظهره، معطياً التوجهات لبلوغ الكورنيش. استدار مرهف مندهشاً فواجهه، عند مدخل الفندق، رجل قصير وبدين، كثيف الشعر وغليظ التقاطيع. أطلق الرجل ضحكة قبل أن يضيف، متطوعاً لإعطاء معلومات لم يطلبها منه أحد: "وإن كنت تنشد الجلوس في ركن هادئ على شاطئ البحر فأنصحك بـ "مقهى النورس"، فهو ملتقى خيرة القوم... قل للمعلم سليم إنك قادم من طرف غازي غانم كيما يحسن استضافتك؛ فهو يخصّني بمعزّة فائقة". وخوفاً من أن يكون فحوى كلامه قد غاب عن الشاب، تابع يقول: "محسوبك هو غازي غانم!".

تمتم مرهف بكلمات شكر فيما كانت السيدة تهم بتأبط ذراع من عرّف بنفسه على أنه غازي غانم. "أيعقل أن تكون زوجته؟" تساءل الشاب وهو يتأملهما يبتعدان؟ وارتسمت على شفتيه ابتسامة إذ لاحظ تعمّد الزوج رفع رأسه إلى الأعلى، فكأنه يبغي إطالة قامته القميئة، وسعي الزوجة إلى خفض رأسها ما أمكن وكأنها خجلة مما تعتبره تجاوزاً بحق بعلها...

لم يدلف إلى "مقهى النورس" عندما بلغ الكورنيش. تخيّل نفسه، مع ذلك، مستعيناً باسم غازي غانم للظفر بمعاملة مميزة، فغلب عليه الضحك. وأحسّ بأن ثقلاً ينزاح عن صدره: فمنذ أسابيع لم يضحك مرة واحدة.

كانت السماء لا تزال متلبدة بالغيوم وإن توقف المطر عن الهطول. بدا له البحر وكأنه فقد زرقته لصالح لون بترولي، كئيب ومهيب في آن معاً. استرخى فوق واحد من المقاعد الخشبية التي توزّعت فوق الرصيف العريض وأولع سيجارة. برودة الطقس لا تشجّع على التنزه، لذلك كاد الكورنيش الطويل أن يكون مقفراً تماماً. "هكذا أفضل" قال بينه وبين نفسه، فهو يؤثر الوحدة على عشرة العامة من الناس. وتذكّر لحظتها صاحب البانسيون وحديثه عن الفنادق الكبرى وأجوائها المترفة ومناخاتها المميزة. تذكر حديث الرجل فغلب عليه الضحك للمرة الثانية إذ طفرت إلى ذهنه صورة السبابة الممدودة التي ترشد إلى "بانسيون العائلات". فقد كانت تتعارض على نحو صارخ، بل كاريكاتوري، مع العالم الوثير للفنادق الكبرى...

لكن ما لبثت صورة أخرى أن طفرت إلى ذهنه فأودت بمرحه؛ صورة

تعود إلى عهد طفولته البعيد؛ صورة رجل يقبض بكل يد على سبَت، ويسير بخطى بطيئة لأنه لم يعد شاباً ولأن حمولته ثقيلة. داخل سبتيه فاكهة وخضار وخبز وجبن وحلاوة، وعلى شفتيه ابتسامة تعجز عن وصفها كل ما احتوت لغات العالم من مفردات. فهي الطيبة بعينها، والسعادة بمطلقها، ونشوة النصر في ذروتها. إنها ابتسامة أب، أبيه بالذات، عندما كان يعود إلى أولاده محملاً بالأطعمة والأطايب.

كان ينتظر هذه العودة مساء كل يوم، بشغف وبنفاد صبر. على السلّم الحجري الصغير المؤدي إلى مدخل بيتهم كان يجلس مع هبوط الليل؛ ظهره إلى باب الدار، وعيناه مسلطتان على الطريق الممتدة أمامه في خطٍ مستقيم. ما كان يعلم حينها إلى أين تؤدي هذه الطريق وماذا وراءها. فقد كان لا يزال دون الثامنة وكانت حدود عالمه لا تتخطى جوار البيت المباشر. كانت نهاية تلك الطريق ترسم خط أفقه... وعندما كان يظهر والده عند ذلك الخط، ما كان يهرع إليه رغم تشوقه إلى ملاقاته. فقد نبّهه أكثر من مرة إلى خطورة العَدْو في طريق عام. كان يمهله حتى يغدو على مسافة أمتار من السلم الحجري ليسرع إليه، مطلقاً صيحات البهجة والفرح. وكان والده يستبق لحظة دخولهما إلى البيت ليعطيه بعضاً مما حمل. كان يتحرر من السبتين، بأن يسندهما إلى جذع شجرة دلب منتصبة عند حافة الرصيف، وينحني لينقّب في محتوياتهما بيديه الكبيرتين. يوماً يخرج منهما تفاحاً سُكّرياً، ويوماً آخر تيناً مجففاً، ويوماً ثالثاً لوحاً من الشوكولاته... كان يزجّ بما انتقى في كفّيه الصغيرتين وهو يردد: "خذ... خذ يا حبيبي... هذا ما جئت به خصيصاً لك!". كان يقبض بكل قواه على ما أعطي من أطايب، ويسير بلصق

والده مجتازاً بزهو وخيلاء المسافة القصيرة التي تفصله عن بيته.

عندما كان يسكن في ذلك البيت لم تكن قارعة الطريق الممتدة في قبالته وقفاً على السيارات. كانت معبراً للحافلات أيضاً، "تراموايات" أيام زمان، ذات اللون الأصفر الضارب إلى البرتقالي. وكان كلما جلس مساءً على السلّم الحجري، مترقباً ظهور أبيه عند الأفق، يرصد حركتها المكوكية بين ذهاب وإياب ويتلهى بعدّها. فإذا ما حالفه الحظ، بان والده قبل أن يصل إلى العشرة. أما إذا لم يحالفه وطال انتظاره، فلا يلبث أن يملّ من العدّ ويتوقف عنه... وذات مساء توقف عن العدّ قبل أن يصل إلى الخمسة، ومن دون أن يبين والده. توقف عن العدّ مضطراً، لانقطاع سيل الحافلات. فما من تراموای ذاهبة، وما من تراموای آيبة. جاء رجل من بعيد بعد ذلك، وخاطب بصوت عال سيدة جالسة على شرفة دار مجاورة ليفيدها بأن حادثة سير رهيبة قد وقعت: فقد دهست التراموای رجلاً محملاً بأكياس اجتاز السكة من دون انتباه.

في ذلك المساء كان موعده الأخير مع أبيه؛ موعد تخلّف عنه والده مضطراً.

تنهد مرهف ورمى سيجارته بعيداً، بحركة لا تخلو من حدّة؛ ففي فترات من حياته، كالتي يعيشها الآن، يشتد شوقه إلى أبيه الراحل الذي فطمه عن حبّه قبل الأوان. حب هو عطاء بعطاء... غداة يوم تشييعه جاءه ابن خالته سمير بكومة من الحصى: "لتحجّر بها الحافلات"، قال. ولمّا سأله مستغرباً لماذا يرميها بتلك الحصى أجابه نسيبه ورفيق لعبه: "انتقاماً لوالدك... هذا أقل ما تفعله من أجله!". يذكر أنه هزّ كتفيه وقتها وعقب على دعوة سمير قائلاً: "لم يطالبني أبي

يوماً بأن أفعل شيئاً من أجله".... هكذا يتعين على الحب أن يكون! فلمَ يلحّ الذين يدّعون حبه على مطالبته بمقابل؟ هذا يريده وفياً في صداقته إلى حد الاستعباد، وذاك يشتكي منه ويعاتبه لأنه أهمله أو تخلّف عن مواعيده. هذه تطالبه بأن يبادلها حبّها، وتلك تقترح عليه الزواج!... تقترح أن تصبح "عقيلته" وتريده أن يوافق على قيد يكبّله!... ولماذا؟ وفي سبيل أي هدف يقبل بمثل هذا الاسترقاق؟... ما كان يتوقع ردة فعل كهذه من حنان. فعندما رفض فكرة الزواج منها و"تأبى عن أن يقطع لها دليلاً على حبّه"، على حد تعبيرها، رمته بسيل من العبارات الجارحة، واتهمته بالتعسف، بالظلم، بل بممارسة دكتاتورية بحق من يحبه، "دكتاتورية الجمال"، كما أسمتها... فليكن! ليَدَعوه وشأنه؛ حنان وسواها. فهو في غنى عنهم جميعاً. إن حبهم لهو من النوع الذي يتخم!... فأين هم من ذلك المحب الذي كان يأتي من بعيد، يداه قابضتان على سبتين عامرين بالأطايب، وشفتاه مفترتان عن ابتسامة اختزلت كل ما في الدنيا من طيبة وعطف واشتياق؟

لم تطل سلمى المكوث في غرفتها بعد عودتها من العمل. استَبَقَتْ موعد العشاء ونزلت إلى بهو الفندق. كان النزيل الجديد لا يزال يتبادل أطراف الحديث مع حاكم؛ يصغي إليه بالأحرى. كانا واقفين غير بعيد عن الركن الذي يحتلّه جهاز التلفزيون: مرهف يدخّن ويومئ برأسه بين الحين والآخر، وحاكم لا يكفّ عن تحريك شفتيه وذراعيه، وقد سلّط نظراته على وجه نزيله. كان هذا الأخير في كامل أناقته إذ استبدل سترة الأمس الجلدية والكنزة الصوفية البيضاء ببذلة رصاصية تزينها ربطة عنق خمرية. لقد كانت التقتله للتو لدى أوبتها إلى الفندق، فحيّاها وابتسم لها، مؤكداً بذلك على أنه لا يزال يذكر اللقاء الطارئ الذي جمع بينهما عند عتبة غرفتها. ولكن، هل تبيح لها هذه الالتفاتة اللطيفة من طرفه أن ترفع الكلفة بينهما؟ هل ما أظهره من حسن استعداد تجاهها يسمح لها بمساررته؟... نهرت نفسها على طرحها مثل هذه التساؤلات: فما لها وهذا الشاب الذي تجهل حتى اسمه؟ ومتى كانت تصارح أول قادم وتبوح له بما يشغلها أو يفرحها؟... يبقى أنها في أمسّ الحاجة إلى مفاتحة إنسان بما أقدمت عليه اليوم. فقد وقّعت على أوراق طلاقها؛ ذيّلتها بإمضائها وأعادت إرسالها إلى المحامي. ومع إنهائها من هذه

المهمة، التي كانت قد ماطلت أكثر مما ينبغي قبل النهوض بها، سيطرت عليها حالة نفسية التبس عليها تفسيرها. فهي لم تشعر بأنها قد طوت صفحة في حياتها، مع ما يلازم هذا الشعور من حنين إلى الماضي، بل من حسرة عليه، بقدر ما أحسّت بنشوة من يفتح صفحة جديدة، مشرقة وغنية بالوعود. شطّبت على رمزي وعلى سبع سنوات من الزواج بجرّة قلم، فدبّت فيها شجاعة كانت قد هجرتها منذ زمن، وعادت إليها ثقتها بذاتها وبإمكاناتها. كان بودها أن تعلن على الملأ أن سلمى فخري انعتقت من سلمى الحاوي، انبعثت من جديد، نفضت عن كاهلها العبء الثقيل لزواج رأى النور فاشلاً. كانت تتمنى إشراك الآخرين في ما يختلجها من مشاعر، أن تجعل منهم شهوداً على خطوتها الحاسمة. بيد أنها لزمت الصمت مكرهة. فمنذ أن وقعت الفضيحة، منذ أن اكتشف زملاؤها في العمل خيانة زوجها لها، أي منذ حادثة السير المشؤومة تلك، وهي تتفادى إثارة مسائلها الشخصية في حضور الآخرين. فهي لا تبغي شفقتهم، كما أنها في غنى عن سخريتهم. ليس لها صديق أو صديقة واحدة بينهم، أو بين أهل البلدة قاطبة. فقد انتقلت إليها بعد زواجها وعاشت متقوقعة في بيتها، تمشياً مع رغبة رمزي الذي ما كان يرحّب بتوسيع دائرة علاقاتهما المقتصرة، عملياً، على أسرته. كان يضيّق عليها ما استطاع، في الوقت الذي كان يبيح لنفسه المغامرات!... ليسامحه الله على ما فعل، فهي لن تعيد فتح ملف الماضي... لقد غدت امرأة جديدة، عازمة على أن تنظر إلى الأمام، وإلى الأمام فقط. ولأن الحياة تبقى حبلى بالمفاجآت السارة، وباللحظات الجميلة، باللقاءات المثرية، أقسمت ألا تهمل مظهرها الخارجي من اليوم فصاعداً. فإهمال

المظهر ضرب من الاستسلام، علاوة على كونه إجحافاً بحق الآخرين. فما الذنب الذي اقترفوه كيما يكابدوا من مشهد إنسان هجرته الأناقة واللياقة البدنية؟ في حين أن الشكل الحسن يشرح الصدر ويدخل البهجة إلى القلب. أقرّت بذلك وهي تخطف النظر إلى حيث وقف النزيل الوسيم، يصغي بكثير من الصبر لحديث حاكم. قميصه حريري في أغلب الظن؛ فنسيجه متهدِّل ولمّاع في آن. أما لونه، الرمادي الفاهي، فيتناغم على أروع نحو مع بزته الرصاصية وربطة عنقه الخمرية. هذا الشاب ثري بكل تأكيد؛ بل بالغ الثراء. فما الذي أتى به إلى هذا الفندق الوضيع؟ "ملاك من السماء"، أجابت بمرح وحبور. وابتسمت على نحو تلقائي، فأضاءت ابتسامتها تعابير وجهها على نحو ملفت للنظر. حتى ان سمير بحري، الذي كان يمرّ بجوارها لحظتها، فطن إلى أنها امرأة جميلة في نهاية الأمر... بادر إلى تحيتها، لا كما يفعل عادة، أي بانحناءة سريعة من رأسه، بل بأن ألقى السلام عليها بصوت مسموع وهو يدنو منها. لم يتجرأ على أن يمدّ لها يده، لاسيما وان عادة المصافحة لم تكن رائجة بين نزلاء الفندق، بيد أنه تعمّد استيقافها ليطرح عليها سؤالاً ما كان بحاجة إلى إجابة عاجلة عنه. فقد استفسرها عن المبلغ الذي تتقاضاه شركتها لقاء تأمين سيارة صغيرة من كل الأخطار. فسارعت تستوضحه عن ماركة السيارة المزمع تأمينها، وعن تاريخ إنتاجها، وعن سن سائقها، وعن سجله في القيادة، أي إن كان قد سبق له أن تسبب في حادثة سير أو لا، وعن مهنته التي قد تستوجب أو لا استخداماً يومياً للسيارة... كانت تتكلم بطلاقة وحمية، عارضة معلومات اكتنزتها على مدى أعوام، سعيدة بإعطاء محدثها دليلاً قاطعاً على سعة إطلاعها. وفيما كانت تعرض وتشرح، وهو يصغي إليها بإمعان وباهتمام، توقفا، على نحو

تلقائي، عند باب المطعم. دقائق معدودة غدت تفصلهما عن موعد العشاء. في الأيام العادية، أي في جميع الأيام التي سبقت ذلك اليوم، كانا سيستعجلان الدخول إلى المطعم وإلى احتلال ركنيهما المعهودين. عادة خرجا عنها تلك الليلة، إذ مكثا يراوحان في مكانهما ريثما يكتمل نصاب القاعة. ربما إرجاءً للحظة افتراقهما... فسلمى كانت تشعر بالحاجة إلى مخاطبة أي آدمي، وسمير كان يزداد اقتناعاً، لحظة بعد أخرى، بأن السيدة التي في قبالته لا بأس بها، بل لا بأس بها على الإطلاق.

والواقع أن سلمى بدت وكأنها امرأة أخرى، غير التي تدلف عادة إلى قاعة المطعم، مطأطئة الرأس، حائرة النظرات، حزينة التعابير. كان في عينيها ألق، وعلى وجهها إشعاع، حتى أن زاهي البستاني الذي كان يستعجل الخطى إلى كرسيه وطاولته، وفي يده الجريدة التي اختطفها تواً من فوق مكتب حاكم، استدار على نفسه وحدّق فيها للحظات وكأنه يريد أن يتأكد من أنه، فعلاً، في حضور سلمى الحاوي. ولكن ما أن لاحت له الست أمينة من بعيد، حاملة وعاء الحساء، حتى هرول إلى مكانه، علّه يفلح في تسويد بعض المربّعات في شبكة الكلمات المتقاطعة قبل أن يباشر تناول عشائه. كان صالح المرشد قد استبقه إلى احتلال الطاولة التي كاد سطحها يغيب تحت كراساته وكتبه. ردّ الشاب على تحيته بدون أن يرفع رأسه عن مجلّد ضخم حمله بين يديه. وسّع زاهي لجريدته مكاناً، وأخرج قلمه من جيب سترته، وانكبّ على ممارسة هوايته بحمية من يدرك أن وقته قد غدا يحسب له بالثواني...

فيما كانت الست أمينة تطوف على الموائد، صارمة التعابير على عادتها، ارتفع صوت غازي غانم يسأل - يتساءل بالأحرى - للمرة الألف عن سر تمسّك أصحاب الفندق بمبدأ الحساء المسائي. فلمَ هذا

الإصرار على فرض طبق الشوربا ء اليومي على النزلا ء؟ "لأن تلك هي الأصول المتّبعة في الفنادق الكبرى"، أجابته زوجته ليلى بنبرتها الوديعة المعهودة. "أترانا نقيم في فندق كبير من دون علمنا؟"، عقّب غازي بصوت مسموع، وهو يجيل نظره في القاعة، بحثاً عن ابتسامة إعجاب وتأييد لدى بقية النزلا ء. بيد أنه لم يظفر إلا بابتسامة طفيفة واحدة ارتسمت على شفتي سلمى فخري الحاوي. وكان امتعاضه سيكون بلا حدود فيما لو أدرك أنها غير موجّهة له...

لئن ابتسمت سلمى في الواقع فلأنها كانت سعيدة... كانت، بين الحين والآخر، تختطف النظر إلى حيث جلس الشاب الوسيم، فيغمرها شعور بالارتياح والطمأنينة. كطفل أهدي لعبة طالما حلم بها فحرص على تفقدها بين الحين والآخر. لا، ليست هي بالغبيّة ولا بالمتهورة. فهذا الشاب لن يكون لها؛ فهو ليس لمثيلاتها من النسا ء. لا تليق به إلا امرأة تجمع بين الجمال، والأناقة، والثرا ء والوجاهة. امرأة كاللواتي تتحدث عنهن مجلات العاصمة في زوايا المجتمع؛ في زاوية "الدور والقصور"، أو "المجتمع المخملي"، أو "أخبارهن"، أو "سفيرات السحر". امرأة على غرار أسمهان صبري، ابنة صاحب أضخم ثروة في هذا البلد، أو حنان ماضي، نجمة ليالي المجتمع الراقي. ليست بالغبية ولا بالمتهورة لتشبّه نفسها بأولئك النسوة. فهنّ في وادٍ، وهي في وادٍ آخر. يبقى أنها هي التي تحظى هذا المسا ء بحضور ذلك الشاب الوسيم الذي يضفي نوراً على كل ما يحيط به. إنه يشعّ حقاً، كشمس صغيرة غادرت الفضا ء النائي لتحطّ بين البشر! لقد أمست قاعة المطعم برمتها وكأنها تسبح في ضوء وهّاج، دافئ وفرح. ضوء ليالي الأعياد كما يحلم بها الأطفال، بل والكبار أيضاً... وطفر إلى ذهنها سؤال: لماذا لا يصار إلى بث موسيقى

ناعمة وهادئة في أثناء العشاء؟ وعزمت على مصارحة المعلم حاكم بفكرتها في أقرب فرصة. فهي واثقة من أنه سيتبناها على الفور نظراً إلى ما يبديه من حرص على إدخال تحسينات على فندقه. وتخيلت ردة فعل الست أمينة عندما سيبلغها النبأ، فكتمت بصعوبة ضحكتها. وكانت أساريرها منفرجة تماماً عندما راحت تجيل نظراتها في القاعة. كان سمير يجري يراقبها، فسارع يبتسم لها ما أن تشابكت نظراتهما. سوف يغادر غداً، قالت بينها وبين نفسها، غير أنه سيعود بعد أسبوعين كعادته دوماً. فمن يدري؟ من يدري ما قد تحمله لها الأيام؟ فهل كانت تتوقع، حتى يوم الأمس، قدوم نزيل على ذلك القدر من الوسامة والجاذبية والأناقة؟ هل كانت تعتبر "بانسيون العائلات" خليقاً باستقبال نجم من نجوم المجتمع الراقي؟ ذلك أن الشاب المميز الذي يجلس على مسافة أمتار منها، ويتبادل أطراف الحديث مع أكرم حداد، هو قطعاً واحد من نجوم ذلك المجتمع. إنها على استعداد لأن تقسم على ذلك ولو لم يتفق لها أن شاهدت صورته في واحدة من مجلاتها المفضّلة. أتراه ينوي الخروج بعد العشاء؟ أهو على موعد مع بعض وجهاء البلدة؟ أفي نيته تمضية سهرته في أحد الملاهي الليلية؟ أم انه لم يتأنق ويفرض على نفسه البزة وربطة العنق إلا إكراماً لأهل الفندق؟... ولمَ لا! بل حبذا لو حذا حذوه النزلاء قاطبة! فلو ساروا على منواله لانحسرت عن القاعة أجواء الكآبة التي تسودها كل مساء. ولربما اضطرت الست أمينة نفسها إلى التخفيف من حدّة نكدها. ها هي تبارح المطعم، جارّة خطواتها بصعوبة، حاملة وعاء الحساء الذي لم يبق فيه، ولا ريب، مقدار ملعقة واحدة. فلئن فطرت الست أمينة على المشاكسة، فإنها تبقى امرأة كريمة رغم كل شيء.

بعد أن ارتفع صوت غازي غانم يسأل: "أترانا نقيم في فندق كبير من دون علمنا؟"، تأفف أكرم حدّاد وهز رأسه في حركة احتجاج واستنكار. أنعم النظر، بعد ذلك، في وجه جليسه، علّه يقف على ردة فعله. وإزاء الابتسامة الطفيفة التي ارتسمت على شفتي مرهف تجرأ على استفساره: "ما رأيك بالأخ؟" "إنسان دعي"، أجاب مرهف. "بل دعي وغليظ"، زاد أكرم. "ولا يستأهل زوجته!"، أضاف مرهف. اضطرب أكرم وأشاح بنظره عن محدثه. فلماذا أتى هذا الأخير بذكر ليلى غانم؟ أتراه قد استشم شيئاً من عواطفه، فتعمد حشرها في حواره؟... تمهل لحظات قبل أن يستأنف قائلاً، بنبرة تعمّدها محايدة: "أن يستأهل ليلى أو لا يستأهلها، فهذا ليس من شأننا... وإن كان لي من رجاء فهو أن يكفّ عن فرض سماجته علينا!". "اسمها ليلى إذن" عقّب مرهف وهو يرفع الملعقة إلى فمه. وساد بينهما صمت قطعه أخيراً أكرم ليسأل، بصوت مرتبك: "ما رأيك فيها هي؟". بدا الشاب وكأنه قد نسي تماماً ما دار بينهما من حديث، إذ رمقه بنظرة مستغربة وهو يجيب: "رأيي بمن؟". "بليلى، ردّ أكرم بانفعال وحدّة؛ أعني السيدة غانم". أخذ مرهف كامل وقته قبل أن يعلن: "سبق أن أعطيتك رأيي:

زوجها لا يليق بها... إنها تبدو درّة ثمينة بالمقارنة معه، أما بحد ذاتها، فلست أدري". "كيف لا تدري، قاطعه أكرم محتجاً، إن لطفها ظاهر ووداعتها جلية! ناهيك عن طيبة قلبها ودفء لسانها!... لم أسمعها مرّة تستغيب إنساناً أو تلفظ كلمة جارحة...". "يبقى أنها اختارت ذلك الدعي زوجاً لها، قال مرهف؛ وهذه نقطة لا تسجّل لصالحها". "ربما قبلت به مضطرة، تمتم أكرم؛ ربما ظروفها هي التي حتّمت عليها هذا الاختيار". "قد تكون على صواب" عقّب الشاب، ولكن بلهجة من يعرب عن شكّه لا عن قناعته، واضطر أكرم إلى موافقته ضمناً. فمنذ شهور وهو يراقب الزوجين، من بعيد أو من قريب، ولم يتفق له أن كان شاهداً، ولو لمرّة واحدة، على خصام بينهما. من الواضح أن السيدة غانم لا تكنّ لزوجها إلاّ الاحترام والمودة والوفاء؛ فهي لا تنظر إلى سواه ولا تخطو خطوة من دونه. ولكن هل هذا يعني، بالضرورة، أنها تحبّه؟ أو أنها قد اختارته بملء إرادتها وميزته عن سائر الرجال؟ أغلب الظن أنه قد فُرض عليها، بصورة أو بأخرى. ولئن أحسنت معاملته، وأحاطته بالتقدير، فلأنه زوجها، لا أكثر ولا أقل. "إنها تنتمي إلى تلك الفئة النادرة من النساء اللواتي لا يزلن يحترمن عقد الزواج" قال برسم مرهف: "من؟"، سأل هذا الأخير؛ ولم يشأ أكرم أن يوضّح له من جديد عمن كان يتكلم: فقد كشف أوراقه أكثر مما ينبغي في حضور الشاب.

لم يكن مرهف حريصاً، في مطلق الأحوال، على معرفة المزيد. أولع سيجارة وراح يحملق في زجاج النافذة المجاورة التي ما عادت تطل إلا على عتمة الليل. تأمله أكرم للحظات، منعماً النظر في شعره الكستنائي الناعم، وتقاطيع وجهه الدقيقة، وعنقه الطويلة البيضاء

البشرة؛ واضطر إلى الإقرار، بينه وبين نفسه، بأنه يضاهي النساء جمالاً. كان بوده أن يعرف المزيد عنه، عن طبيعة عمله، عن وضعه العائلي، عن أسباب قدومه إلى هذه البلدة وإقامته فيها... غير أن الشاب لا يشجّع على رفع الكلفة كلياً. فهو، متقلب المزاج؛ تارة يحدّثك وكأنك صديق قديم وطوراً يعاملك وكأنك غريب. فها هو الآن يسرح مع أفكاره، متجاهلاً وجوده، مع أنه كان للتو يسامره وكأنهما خليلان!...

قطع عليه حبل تفكيره صوت كرسي يجرّ؛ وكاد لا يصدّق عينيه عندما رأى سمير بحري يهمّ بالجلوس إلى طاولة سلمى الحاوي. "عشنا وشفنا" ردد في نفسه وهو يراقب ما يدور على مسافة أمتار منه. سمير يتكلم بحمية، منحنياً قليلاً فوق الطاولة، ويداه تؤديان رقصة إيمائية، وسلمى تنصت إليه باهتمام، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة فيها رضى وفيها ارتباك. "أتراه يعدّد لها منافع دواء جديد؟"، تساءل أكرم بنبرة متهكمة. ويبدو أنه قد صاغ هذا التساؤل بصوت مسموع، إذ سارع مرهف يستفسره بفضول: "ماذا دهاك؟... عمن تتكلم؟" "عن سمير بحري الذي شرب الليلة حليب السباع على ما يبدو. فقد فرض نفسه على الست سلمى، منتهكاً حرمة جلستها!". هزّ مرهف كتفيه في حركة استخفاف، مستهيناً بما اعتبره أكرم حدثاً. اغتاظ هذا الأخير من ردة فعل الشاب، فأضاف موضحاً: "إن عهدي بالفندق طويل، بخلافك أنت؛ فقد حللتَ فيه بالأمس فقط، أما أنا فمنذ شهور، منذ أن تقاعدت من عملي في الجمارك. وأستطيع أن أجزم لك بأن هذه هي المرّة الأولى التي يبادر فيها نزيل إلى مجالسة نزيلة لا تمت إليه بصلة قربى!". وزاد امتعاضه عندما عقّب مرهف، بنبرة لامبالية، وكمن يسلّم بأمر واقع: "لكل شيء بداية"...

لم يكفّ حاكم عن استراق النظر إلى باب الفندق الزجاجي، وهو جالس خلف مكتبه، يراجع حساباته. كان ينتظر عودة مرهف ليريه تلك الصورة القديمة التي لم يوفّق في العثور عليها إلا بعد أن قلب محتويات أدراجه رأساً على عقب. وللمرة العاشرة، أو ربما أكثر، اطمأن إلى وجودها، حيث أخفاها، تحت سجل حساباته الضخم. فلو علمت الست أمينة أنه عاث فساداً في تلك الأدراج بحثاً عن صورة، لا عن "فاتورة بالغة الأهمية" كما ادّعى، لأقامت عليه الدنيا وأقعدتها. تنهد، ثم ابتسم. فزوجته سريعة التذمّر، لا ترى في الحياة سوى سلسلة من الواجبات يتعين النهوض بها بأمان، وتعتبر كل مسعى للترفيه عن النفس ضرباً من إضاعة الوقت. غير أنها تبقى امرأة طيبة، مستقيمة ووفية...

أطلّ مرهف. وكاد حاكم يكذّب عينيه عندما رآه بصحبة صالح المرشد. فقد دخل الشابان معاً، وهما يتبادلان أطراف حديث عقداه منذ حين في أغلب الظنّ؛ ذلك أن الطالب الريفي كان يتكلم بحمية، مؤدياً حركات غريبة بذراعه اليمنى، فيما كان مرهف يصغي إليه باهتمام وهو يبتسم له بود. وأحسّ حاكم بشيء من الامتعاض. ربما لأنه لم يسبق أن

خصّه مرهف بابتسامة. وربما، أيضاً، لأن ظهور صالح المرشد المباغت أحبط مشروعه، أو زرع العراقيل في طريقه. فكيف ينتحي بمرهف جانباً ليعرض عليه الصورة و"بيطري المستقبل" معلّق بذيله؟... وجاءه الفرج من حيث لا يدري؛ ففيما كان الشابان يهمّان بالجلوس في ركن من أركان البهو رنّ جرس الهاتف. تناول حاكم السمّاعة، وبعد ثوان رفع صوته ينادي على صالح المرشد ويفيده بأن والده يرغب في مكالمته. أسرع صالح يردّ على الهاتف. فغادر حاكم مركزه خلف مكتبه، بعد أن اختطف الصورة من حيث كان أخفاها. جال قليلاً بهو الفندق، وهو ينظر يميناً ويساراً، متظاهراً بالبحث عن شخص ما، ثم اقترب من حيث يجلس مرهف. كان مقعد صالح لا يزال شاغراً فاحتلّه. رحّب مرهف بقدومه بلباقة وتهذيب، فبادر إلى عرض الصورة عليه وهو يسأله مداعباً: "هل تستطيع أن تتعرّف عليّ وسط هذا الجمع؟" أخذ الشاب كامل وقته قبل أن يجيب: "بصراحة لا... يقيني أن هذه الصورة قد التقطت قبل سنوات". "قبل اثنين وأربعين عاماً!"، أوضح حاكم. "أنت هذا الفتى، إذن"، عقّب مرهف وهو يشير بإصبعه إلى الشخص الذي ظهر إلى أقصى يمين الصورة. "كان شعرك كثيفاً يومها"، أضاف وهو يضحك. وانبرى حاكم يسأله من جديد: "وهل تعلم من تكون هذه السيدة التي تتوسط الصورة؟ السيدة الوحيدة فيها في مطلق الأحوال...". ولم يدع لمرهف فرصة للتعبير عن رأيه إذ أضاف على الفور: "إنها بديعة الشلبية... ربما سمعت عنها، من خلال أحاديث أهلك أو أصدقائهم... فقد كانت ملكة ليالي العاصمة بلا منازع... ما من امرأة ضاهتها جمالاً... لا تبتسم! فهذه الصورة لا تعطي فكرة واضحة وأمينة عنها! إنها لا

تكشف عن خضرة عينيها، ولا عن بياض بشرتها، ولا عن رشاقة جسدها، ناهيك عن أنها لا تسمعك صوتها الذي كان خليقاً، وحده، بسبي العقول!... اسأل والدك عنها يوماً، ربما عرف شيئاً عنها، بحكم كونه من أهل العاصمة".

وتابع حاكم وهو يلوِّح بالصورة الفوتوغرافية: "فيما يتعلّق بي شخصياً فقد عرفت الكثير عنها بحكم عملي في فندق "قصر الحمراء" حيث أقامتْ لمدة عام أو أكثر. كانت وقتها على علاقة مع خيري بك الحكيم، صاحب معامل النسيج الشهير. كان ينفق عليها بسخاء عظيم، بل قل بتهور فادح، في حين كانت تقتِّر عليه ودّها وتبخل عليه بوفائها... كانت تعيش على نفقة خيري بك وكانت تنفق، في الوقت عينه، على شاب وسيم، عربيد وسكّير، يدعى، على ما أذكر، شفيق... أو ربما توفيق... كان في العشرين من عمره في حين كانت هي قد قاربت الأربعين".

بدا مرهف مهتماً بما يسرده عليه حاكم، لذلك تابع هذا الأخير يقول: "صدقني ان قلت لك إني لم أصادف طول حياتي امرأة أشد دهاء واحتيالاً من بديعة. ما كانت تكتفي بالأموال والهدايا الثمينة التي يغدق بها عليها خيري بك، بل كانت تتفنن في ابتكار طرق للنصب يذهب ضحيتها عشاقها والمعجبون بها. من جملة الحيل التي كانت تلجأ إليها واحدة تستأهل أن تروى. كانت إذا ترقبت زيارة وجيه عظيم القدر، أو رجل أعمال فاحش الثراء، تلجأ إلى خدمات صائغ متواطئ معها. كان الصائغ يحضر في أثناء وجود الزائر الرفيع، حاملاً معه عقداً، أو أسوارة، أو خاتماً من الماس، زاعماً أن السيدة بديعة قد أوصته على تلك

الحلي. وكانت هذه الأخيرة تثني على ما جاءها به، وتبدي عن رغبة شديدة في اقتناء تلك التحف، لتعتذر في النهاية للصائغ عما سببته له من عناء؛ فبعبارات رقيقة، مرفقة بابتسامات وحركات غانجة، كانت تصارحه بعجزها عن إنجاز الصفقة المتفق عليها بسبب ضيق ذات يدها: فنتيجة ظروف طارئة، تكبدت نفقات ما كانت تحسب لها حساباً!... بعد هذا "الاعتراف" كان الصائغ يستدير نحو الزائر الوجيه كأنه ينتظر منه حلاً للمأزق الذي يواجهه. وغالباً ما كان المعجب الثري يقع في الفخ، إذ ينبري لتسديد قيمة العقد أو الخاتم الذي "خلب لبّ" السيدة بديعة، والتعبير لها... وفي اليوم التالي كانت الغانية تعيد الحليّ للصائغ الذي يعيد لها، بدوره، المبلغ الذي تقاضى، بعد أن يكون قد خصم منه عمولة متفقاً عليها سلفاً!"

طفق مرهف يضحك، بمرح طفل كان شاهداً على مقلب وقع ضحيته راشد وقور. أخذ الصورة، بعد ذلك، من يد حاكم وهو يقول: "دعني أرى صديقتك ثانيةً". فردّ حاكم على الفور: "استغفر الله يا رجل! لم تصادقني بديعة يوماً!... لم أكن ثرياً ولم أكن وسيماً، فلماذا تريدها أن تحيطني بعطفها؟... وفي مطلق الأحوال، كنت مجرد خادم في تلك الأيام. ولئن مَثَلْتُ في الصورة، مع تلك الصحبة الطيبة، فمحض صدفة، صدّقني". وأضاف حاكم وهو يدني رأسه من رأس مرهف الغارق في تأمل الغانية التي رفعت كأساً بيد وسيجارة بالأخرى: "الرجل الذي يقف إلى يمين بديعة ما هو إلاّ رفعت بك البنّي؛ كان يملك نصف عقارات "شارع الأندلس" في العاصمة، بالإضافة إلى ثلاث قرى قائمة على تخومها. الشاب الذي تراه إلى يسارها هو زهير ماضي. أمّا العملاق

الذي وقف خلفها، رأسه يعلو رأسها بنصف متر، فهو...". قاطعه مرهف ليسأل: "قلت زهير ماضي؟"، وأضاف، وكأنه يخاطب نفسه: "أتراه والد حنان؟". "لست أدري، علّق حاكم؛ كان عازباً آنذاك، على كل حال... كان دون الخامسة والعشرين على الأرجح... كل ما أعرف عنه أنه ابن قاضٍ تسلم، في فترة من الفترات، وزارة العدل... أو ربما وزارة الأشغال العامة، ما عدت أذكر تماماً". "إنه والد حنان، إذن"، قال مرهف بصوت خفيض. وتردد حاكم قبل أن يسأل: "وحنان هذه، أتعرفها؟... أعني، أأنت صديق ابنة زهير ماضي؟". أومأ مرهف برأسه إيجاباً وأعاد الصورة إلى حاكم. وما لبث أن نهض واستأذن بالانصراف، زاعماً أن لديه بعض مهام يتوجب عليه إنجازها قبل موعد العشاء. وفيما كان يصعد على السلّم المودي إلى الطابق العلوي تتبَّعه حاكم بنظراته وهو يردد باعتزاز: "صديق ابنة زهير بك ماضي ويقيم في فندقي!".

لم يضئ مرهف النور في غرفته، بل استلقى على سريره وراح يحملق في زجاج النافذة الذي كان يعكس بعضاً من ضوء مصباح الشارع. أيام ثلاثة انقضت على قدومه إلى هذه البلدة؛ على رحيله عن مدينته الصاخبة؛ على انقطاعه عن أصدقائه ومعارفه؛ على قطيعته مع حنان... حنان التي أصرّت على حشره في الزاوية، على تضييق الخناق عليه، رغم العهود التي كانت قد قطعتها له باحترام حريته وعدم المسّ بها! فقد تكشفت في النهاية عن انها امرأة على غرار سواها من النساء؛ امرأة تعطي، ولكن لا تكفّ عن الطلب... ما الذي دهاها؟ ومن أين جاءت بفكرة الزواج تلك؟ أفلم يوضّح لها، بما فيه الكفاية، أنه لا يتحمّل أي قيد؟ أفلم تكرر على مسامعه، على مدار أيام سنة بكاملها، أنها لن تثقل عليه بحبّها مهما عانت هي من جموح هذا الحب وطغيانه؟... كان قد ارتاح إلى علاقته معها. علاقة جاءت منسجمة مع رغباته، وعلى أكثر من صعيد واحد. فهو يؤثر عشرة بنات الأسر. لا من باب التفاخر أو حباً بالمظاهر، بل لأن الأجواء التي تسود دور الوجهاء تستهويه. فهو يحلو له الجلوس في الصالونات الفخمة، من حول الموائد العامرة، بصحبة أناس تحرروا من الهموم المادية، من إكراهات الضيق،

من تبعيات العمل المأجور، من الشقاء والحرمان... ويحلو له، كذلك، تلقي الهدايا الثمينة، وقبول الدعوات بمناسبة وبلا مناسبة، وركوب سيارات "السبور" التي تشقّ الريح كحصان مجنّح. ويحلو له، أيضاً وخاصة، أن يكون موضوع عشق من قبل نساء لا همّ لهنّ سوى الحب ومتعه بدون تبعاته. وقد لبّت حنان هذه الرغبات قاطبة، بل وأكثر. فقد فرضته ضيفاً، معزّزاً ومكرّماً، على مآدب والدها وحفلات استقباله شبه الدائمة؛ ووضعت في تصرفه سيارتها الحمراء الجديدة التي كانت قبلة للأنظار حيث خطرت؛ وأتخمته حباً، وأغرقته بالهدايا، بل جعلت منه موضوع تعبدٍ. وقد عرف نعيماً حقيقياً بفضلها... إلى أن بدأت تتصرف وكأنه خاصتها! فإذا اعتذر عن موعد، حاصرته بالأسئلة عن دوافع اعتذاره؛ وإذا رفض دعوة بسبب تعب أو وعكة صحّية، هتفت له كل خمس دقائق للتأكد من أنه في بيته فعلاً. وإذا وقعت "الكارثة" وتناهى إلى سمعها أنه قد شوهد مع سواها، شكت وبكت وانتحبت. تصرف يمقته، بل ينفر منه إلى حد التقزز. حاول أن يعيدها إلى رشدها، أي إلى سابق عهد علاقتهما، بأن أكد لها على وفائه لها. وقد أخلص لها، في الحقيقة، ولسبب بسيط: فلماذا يسعى وراء سواها ما دام قد وجد عندها ما يبغيه؟

ولكن بدلاً من أن تطمئن إلى إخلاصه المعلن، المجهور به، أرادت أن توظفه في مشروع زواجيّ. "ما دمت لا تحب سواي فلمَ لا تبني حياتك معي؟"، ما فتئت تردد صباحاً ومساءً. وهل قال لها يوماً إنه يحبّها؟!... لئن أخلص لها فهذا لا يعني، بالضرورة، أنه يحبّها!... ولئن وفّرت له أسباب السعادة فهذا لا يعني أنها، هي، مصدر هذه السعادة... تطالبه

بالزواج!! ولمَ لا تطالبه بالأبوة لاحقاً!... لا ريب في أن شاباً سواه كان سيرحّب بمثل هذا العرض، ولاسيما إذا كان مفلساً، على غراره... لقد باع ساعته الذهبية الثمينة لينفق على نفسه بعد قطيعته مع حنان... وسوف يضطر إلى بيع أو إلى رهن تحف عزيزة على قلبه إذا ما بقي على هذه الحال، أي إذا ظلّ يعيش وحيداً، منكفئاً على ذاته. والحال أنه قد بات يقابل مشروع أية علاقة جديدة بالنفور عينه الذي يقابل به فكرة الزواج...

صحيح أنه لم يتحرّق يوماً في سبيل الوصول إلى امرأة، ولم يعرف قط سعي الرجال المحموم وراء الأنثى، ولم يعانِ من عذاب الظنون ولا من أرق الانتظار. فهو كائن جبل على أن يكون مجانياً، ولا يحب من العلاقات إلا ما كان مجانياً. وصحيح أنه لو وافق على فكرة الزواج من حنان لطوى إلى الأبد صفحة الهموم المادية. فهي الوريثة الوحيدة لثروة أبيها الطائلة، ثروة لن تتوانى لحظة واحدة عن وضعها في تصرفه. لقد أفهمته ذلك صراحة، بل بصراحة لاتخلو من وقاحة! لكأنها أرادت أن تغريه بالمال للتغلب على تحفظه... لو وافق لما اضطر إلى أن يبيع بالأمس ساعته الذهبية، وفي الغد تحفه الأثرية؟ ولكن، لو وافق، أما كان سيغدو انتهازياً حقيراً في نظر ذاته؟ وصولياً مستعداً لتقبل التنازلات قاطبة؟

لا ريب في أنه انتهازي حقير، حاضراً وماضياً، في نظر الآخرين أفلم يعش، عملياً، على نفقة النساء منذ أن ودّع طور المراهقة؟... لم يتقاض منهن مبالغ من المال طبعاً، غير أنه تقبل هداياهن الثمينة ودعواتهن المتكررة... أقام في بيوتهن، تنقّل في سياراتهن، طاف على

كبريات عواصم العالم بصحبتهن وعلى حسابهن. غير أنه كان، على الدوام، معزّزاً مكرّماً، وما هو أهم من ذلك، حراً في قراره وتصرفه. لم يذلّ نفسه مرة واحدة؛ لم يقدِّم تنازلاً واحداً؛ ولم يقبل، ولو على نحو عابر، بعلاقة مبتذلة، سوقية، متجردة من الإرهاف واللياقة. كان يعيش على نفقة عشيقاته، غير أنه كان، رغم ذلك، أميراً...

لو وافق على الزواج من حنان لانحطّ مرتبة في نظر ذاته، لاسيما وأنها هي التي عرضته عليه، بل طالبته به وكأنه طوع إرادتها. لو صدرت الفكرة عنه هو، لربما اختلف الأمر. لربما... ذلك أنه بدأ يملّ من نمط حياته... فقد أعطاه جلّ ما يمكن أن يعطيه، وما عاد يعده إلاّ بالتكرار... حقيقة يعزّ عليه الاعتراف بها، بل يسعى جاهداً إلى التهرّب من مواجهتها... لكن حنان لم تدع له فرصة المبادرة... كما أنها لم تدع له حيزاً من الاستقلال يتنفس فيه... فرضت عليه طغيان حبّها، أخذته رفي دوامة عشقها، رفعته صنماً على مذبح تعبدها، وبعد ذلك كلّه أصرّت على تقييده على نحو صريح ونهائي...

بكت، انتحبت، توسلت، غضبت، ثارت. "أعطيتك الكثير، قالت، فلماذا تبخل عليّ بالقليل!". عبارة جعلته يخرج عن طوره، خلافاً لعادته. لئن أعطته، فعن طواعية؛ هو لم يطلب شيئاً. أما "القليل" الذي طالبته به فهو حريته، استقلاله، بل أكثر من ذلك: احترامه لذاته!... وقالت، أيضاً، إنه من "حقّها" أن تنتزع منه موافقة بعد كل ما فعلته من أجله... ومن أقرّ لها بهذا الحق؟ وهل يبقى العطاء عطاء إذا ما افترض مقابلاً؟ تباً لهذا العالم... وتباً لهؤلاء الناس!

نهض من فوق السرير ودار على نفسه في الغرفة. دنا بعد ذلك من

النافذة، فتحها فلفحته نسمة باردة ورطبة. حنى رأسه يتأمل الشارع الضيق الذي أقفر من المارة مع هبوط الليل. كان حزيناً، حزيناً إلى حد البكاء. هل الدموع هي التي شوّشت عليه رؤيته؟ فمن بعيد، عند أقصى الشارع، بان له رجل يسير بتؤدة، قابضاً بكل يد على سبت امتلأ بالمشتريات حتى الانتفاخ. كاد أن يلوّح له بذراعه، أن ينادي عليه بأعلى صوته. غير أنه عضّ على شفته واتكأ برأسه على إطار النافذة ثم أغمض عينيه وقد تلبسه القنوط وغلب عليه الحنين. وترامى إلى مسامعه صدى خطوات يعلو أكثر فأكثر؛ خطوات رجل أضناه عمله الشاق، واتعبته حمولته الثقيلة؛ خطوات تقترب وتقترب فكأنها داخل غرفته. ضغط براحتيه على عينيه كمن يقفل باباً بعد إغلاقه. فقد خشي أن يرتفع عنهما جفناه فتبين له غرفته على حقيقتها؛ خشي أن يسترد قدرته على النظر فيغيب عنه وجه والده وتتلاشى تلك الابتسامة الطيبة التي تعجز مفردات معاجم العالم قاطبة عن وصفها...

لم يقصد أكرم حداد مقهى "السندباد" بعد ظهر ذلك اليوم. وكاد لا يصدق نفسه عندما أزفت الساعة الخامسة وهو لا يزال جالساً في بهو الفندق... فمنذ أن عاد إلى بلدته ليعيش فيها حياة متقاعد، أي منذ أن فكّ ارتباطه مع دنيا الجمارك، وهو يواظب، يومياً، على ذلك المقهى. يجتاز عتبته في تمام الرابعة ولا يغادره إلا مع اقتراب عقارب الساعة من الثامنة. يغادره مسرعاً، بل مهرولاً، خوفاً من أن يفوت موعده مع العشاء... الست أمينة تسترق النظر إليه كلما خطرت في البهو؛ وحاكم يستفسره ان كان تعباً، متوعكاً؛ أما رفاقه في "السندباد" فسوف يعزون غيابه إلى ظروف قاهرة: رحلة طارئة إلى العاصمة أو إلى الخارج، وفاة قريب أو صديق عزيز، أو موته هو بالذات!... فحتى المرض ما حال يوماً دون مجيئه إلى المقهى؛ يذكر أنه ظل يتردد عليه في الشتاء الماضي، حين أصيب بنزلة وافدة تسببت في ارتفاع حرارته والتهاب رئتيه. كما لم يمنعه تردي الأحوال الجوية من أداء ذلك الطقس اليومي. فحتى لو أبرقت، ورعدت، وأمطرت؛ حتى لو هددت الرياح العاصفة باقتلاع الأشجار من جذورها، ويجرف المشاة، فإن الساعة الرابعة كانت ستجده دالفاً إلى مقهى "السندباد"... هذا ما كان يحصل كل يوم... فيما عدا

هذا اليوم! فقد وعد الزوجين غانم بأن يلتقيهما في بهو الفندق للخروج في نزهة... كيف تم الاتفاق على هذا المشروع؟ كيف تجرأ هو على طرحه؟ كيف وافق عليه غازي غانم؟ أسئلة ما فتئت تلحّ عليه فتدفعه إلى استذكار دقائق الجلسة التي كانت قد انعقدت بالأمس، في هذا البهو بالذات، بعيد موعد العشاء. ففيما كان يتبادل أطراف الحديث مع زاهي البستاني والزوجين غانم أطلّ عليهم، خارجاً من قاعة المطعم، النزيل الجديد، المدعو مرهف، يتبعه طالب البيطرة الذي غدا يلازمه وكأنه ظلّه الأمين. كان الطالب يتكلم بحمية، وبصوت قوي مما حدا بزاهي البستاني إلى القول: "يبدو أن لسان بيطريّنا اللامع لا ينعقد إلا في صحبتي فقط... فمع أنه يشاركني مائدتي منذ شهور فإنه لم يتفضل ويخصّني بحديث واحد... أتراه يخشاني؟ أم، بالعكس، يستصغرني؟". ألقى الشابان التحية من دون أن يتوقفا، لكن غازي غانم سارع يدعوهما إلى الانضمام إليهم. فالرجل يشكو من حالة مرضية تتلخص في حاجته الدائمة والملحّة إلى جمهور يصغي إليه. وافق مرهف واعتذر الطالب متذرعاً بضرورة الإعداد لامتحان وشيك. ولم يكن قد ابتعد مسافة أمتار حتى بادرت ليلى غانم تقول، موجهة كلامها إلى مرهف: "ربما أكون مخطئة، غير أن طالبنا الشاب يبدو لي وكأنه غدا إنساناً آخر!... منطلقاً، واثقاً من نفسه، وسعيداً أيضاً...". "ربما كان يحتاج إلى من ينصحه ويأخذ بيده" أجاب مرهف وهو يبتسم. هنا قحّ غازي غانم، استعداداً ولا بد لإلقاء خطبة. ولكن زوجته، الوديعة، الخجولة، المعتادة على الامحاء في حضوره، تابعت تقول: "كان يحتاج إلى صحبة طيبة في المقام الأول، إلى صديق أو حتى إلى رفيق..."، وخفت صوتها وهي تضيف: "شأنه في ذلك شأن أي إنسان". ورمقته

بنظرة، هو أكرم حداد! لتقطع يده إن كان يكذب أو يدّعي! ولم تخْفَ هذه النظرة على مرهف، إذ بادر إلى القول: "لست أنا من سيخالفك. فالناس لبعضها... لذلك تراني أستغرب حالة العزلة التي تقولون إن ذلك الشاب الريفي الطيّب يعيش فيها، مع أنه يقيم في فندق صغير جل نزلائه دائمون...". هنا ارتفع صوت غازي غانم يعلن: "نحن مقصِّرون في الحقيقة، وتجاه بعضنا جميعاً لا تجاه ذلك الشاب وحده... من ناحيتي، تراني أسعى دائماً وراء الآخرين. فأنا، مثلاً، من دعاك تواً إلى مجالستنا". وكمن يرمي بنفسه في البحر من غير أن يكون واثقاً من قدرته على السباحة سارع، هو أكرم حداد، يقول وهو يحدّق في غازي غانم: "سوف أحذو حذوك، سوف أسعى بدوري وراء الآخرين. فما رأيكم لو خرجنا غداً، قبيل الغروب، في نزهة على الشاطئ؟ أقترح هذه الفكرة على الجميع...". اعتذر زاهي البستاني لأنه سيكون في وظيفته، واعتذر مرهف بحجة أنه ينتظر زيارة. أسقط في يد غازي غانم فأعلن أنه يوافق؛ وكان سيوضّح، على الأرجح، أنه ينوي تلبية الدعوة بمفرده، لو لم تبادر ليلى إلى الترحيب بالمشروع.

بات يدعوها ليلى، فكّر في سرّه، فابتسم راضياً.

وَعَداه في الخامسة، وها هي الساعة تشارف على الخامسة والربع ولم يحضرا بعد. هل جدّ عليهما ظرف طارئ حال دون مجيئهما؟ أم أن غازي قد عدل عن المشروع؟ ربما ارتاب في نواياه... فمن حقه أن يغار على زوجته... بل كيف لا يغار على امرأة في جمال ولطف وكياسة ليلى؟ لو فعل، لما لامه... لاستاء منه، ولكن لاعتبارات تخصّه هو...

كان قد بلغ هذا الحد من التساؤلات عندما بان غازي غانم عند أعلى السلّم. كان بمفرده. هبط بتوءدة الدرجات التي تفصله عن البهو؛

وعندما أصبح عند أسفل السلم، توقف. أشار لأكرم بحركة من يده، ثم صرف اهتمامه الى إيلاع سيجارة. "ليته يتجمّد في مكانه!"، قال أكرم بينه وبين نفسه. فان كان يمقت شخصاً في الدنيا، فهو غازي غانم. وقد اغتمّ لفكرة الانفراد بصحبته لمدة ساعة أو أكثر... ولكن في تلك اللحظة بالذات ظهرت ليلى بدورها عند أعلى السلّم. شعر أكرم بضربات قلبه تتسارع فوبّخ نفسه قائلاً: "عيب يا رجل! أمراهق أنت؟... ماذا دهاك؟ أنسيت أنها متزوجة. لها زوج يا أحمق". غير أن هذا الزجر لم يجده نفعاً. فبالرغم من أعوامه الستين، وبالرغم من المغامرات العديدة التي عاشها والتجارب التي خاضها على مرّ الأيام، وبالرغم مما ينطوي عليه موقفه من عبثية ولاجدوى، فقد غمرته سعادة تفوق حدّ التصور وهو يرنو إلى ليلى تهبط السلم، ثم تدنو منه أكثر فأكثر، يتبعها غازي، بدلاً من أن يستبقها على عادته.

"كيف نتجه؟"، سألتْ عندما خرجوا من الفندق. وانبرى غازي يخطط ويحدد وكأنهم ذاهبون إلى المرّيخ. أما أكرم فقد انشغل للحظات بإيجاد جواب لسؤال أقلقه: "كيف تحوّل، بين عشية وضحاها، من معجب إلى عاشق؟ فحتى ليلة الأمس ما كان يكنّ لليلى أكثر من مشاعر إعجاب وتقدير... غير أنه انشغل عن السؤال والجواب ليصغي إلى ليلى تحدثه عن حفيدها الذي سيبلغ عامه الأول بعد أسبوع والذي خطا اليوم خطوتين بمفرده. أصغى إليها تحدثه عن ذلك الحفيد وعن أمه، أي ابنتها الوحيدة التي انتقلت إلى كندا بعد زواجها، والتي هتفت لها هذا الصباح، في تمام العاشرة؛ أصغى إليها باهتمام ظاهر، وهو يردد بينه وبين نفسه بحنان وتهكم في آن معاً: "العاشق تجاوز الستين، والحبيبة أصبحت جدّة".

لا يذكر زاهي البستاني أنه تكلم، طول حياته، على النحو الذي فعل ليلة الأمس؛ ولا حتى مع ثريا، رحمها الله... فمن عادته ألا يتطرق في حديثه إلاّ إلى شؤون الحياة اليومية؛ ومن عادته، أيضاً، أن يختصر ما أمكن في الكلام. فما الفائدة من الإسهاب؟ وما ضرورة الشرح والتفصيل بعد ما يتم توضيح المقصد؟ ثريا كانت تشتكي من "بخله" في الكلام؛ من "بخله حتى في الكلام" على حد تعبيرها... والحال أنه يقتصد فيه فحسب، كما يقتصد في كل شيء. هكذا نشأ، وعلى هذا المنوال سار، بالرغم مما تعرّض له من انتقادات. "إن عشرتك تبعث على الملل"، عبارة طالما سمعها على مر الأيام. لكأنه يُفترض في الناس جميعاً أن يأتوا على صورة غازي غانم، أي ألا يكفوا عن الكلام، أأعجب الآخرين أم لم يعجبهم! ترى، أفلم يتسبب هو في إزعاج مرهف ليلة الأمس؟ فقد مكث يحدثه على مدى ساعة أو أكثر من غير أن يعير ردود فعل الشاب بالاً، فربما أدخل الملل إلى نفسه، لا بسبب تقتيره في الكلام، بل بسبب الإكثار منه هذه المرة... "مهما فعلت، تبقى عشرتي غير مرغوب فيها"، ردد بينه وبين نفسه، ولكن بقدر من الدعابة، بل من الرضى. فقد تملكه شعور بالارتياح بعد جلسته المطولة مع ذلك الشاب

اللطيف والمهذب؛ علماً بأنه لم يكشف له عن سرٍ ولم يصارحه بأمور جوهرية. بل على العكس من ذلك تماماً، فهو لم يروِ له إلا بعض الذكريات البعيدة، التي كادت تمّحي تماماً من ذاكرته، ولم يحدّثه إلا عن مسائل غير ذات أهمية، طفرت إلى ذهنه صدفة. حكى له مثلاً عن أول حفلة راقصة ذهب إليها. كان في السادسة عشرة وكان لا يملك إلا سترة وحيدة شاء سوء حظّه أن تتلطخ بالزيت قبيل توجهه إلى مكان الحفل. وسعت أمه إلى إزالة البقعة بان دلقت عليها كمية من الكاز. أزيلت البقعة ولكن بقيت رائحة الكاز. فكان كلما دار في حلبة الرقص، نشر من حوله رائحة كريهة، مثيراً دهشة بقية الراقصين وتساؤلاتهم. وأوضح له، كذلك، أسباب نفوره من التبذير ومن المبذّرين. فقد نشأ في أسرة وضيعة، لم تنعم بالبحبوحة يوماً. كل شيء كان خاضعاً للتقنين في بيت أبويه، بما فيه الخبز. صحيح أنه لم يعرف الجوع، غير أنه لم يعرف التخمة أيضاً، ولا حتى في مواسم الأعياد. وكانت تثور ثائرته كلما شاهد ابن جيرانه الأغنياء يتأبى عن أكل أشهى الفاكهة وأفخر الحلويات. كان الصبي يدعى فوزي وكان يتأفف باستمرار من إلحاح ذويه على تغذيته، لكأنه يجد مشقة فائقة في قضم قطعة شوكولاته أو مضغ سيخ من الشواء!... وقد فاجأه يوماً وهو يرمي في سلة قمامة بصندويش محشي بشرائح من الجبن والخيار فتمنى لو ينهال عليه ضرباً. كما روى لمرهف حادثة لم يسبق له أن أتى بذكرها أمام أحد. كان في الرابعة عشرة وكان لا يزال عديم الخبرة في شؤون النساء وفي ميدان الجنس. كانت أسرته قد انتقلت قبل أشهر إلى دار جديدة تقطن في جوارها سيدة تدعى سوسن. امرأة في العقد الرابع، مستهترة وشبقة،

ومتزوجة من سائق تاكسي يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل. ذات مساء، وفيما كان يتسكّع أمام دارها، نادت عليه المرأة أن يصعد إليها لأنها تحتاجه في خدمة. كانت "الخدمة" المطلوبة الصعود على سلم خشبي لإنزال حقيبة سفر من فوق سطح دولاب. فقد ادّعت السيدة سوسن أنها في حاجة ماسة إلى الحقيبة، وأنها تخشى الصعود على السلّم عندما تكون بمفردها في الدار: فقد تزلّ قدمها أو تصاب رأسها بالدوار. ادّى المهمة وأراد أن ينسحب على الفور، غير أنها أقسمت بأنها لن تدعه يذهب قبل أن تقدم له كوباً من عصير البرتقال. شرب العصير، والتهم البسكويت الذي رافقه، وهمّ بالرحيل من جديد. سألته آنذاك إن كان يرغب في مشاهدة التلفزيون. رحّب على الفور؛ فالشاشة الصغيرة ما كانت يومها قد عرفت بعد ذلك الانتشار الواسع، وجهاز التلفزيون لم يكن قد دخل بعد لا دار والديه ولا دور المقرّبين من أهله. وانشغل تماماً عن مضيفته بأحداث مسلسل هزلي راح يتابعه بشغف؛ لذلك شده عندما رآها تنتصب فجأة أمامه وقد استبدلت الثوب المزهر الذي كانت ترتديه بقميص وردي شفّاف كشف عن صدرها وعن فخذيها. نهض على الفور من جلسته، مرتبكاً، مضطرباً. لم يخطر في باله، ولو للحظة واحدة، أن الجارة اللعوب تبغي إغواءه. توهم أنها ما ارتدت ثياب النوم إلا لتفهمه بأنه قد أطال زيارته وعلى نحو غير لائق. لذلك سارع يتمتم بكلمات اعتذار ويستأذن بالانصراف.

ضحك مرهف ملء صدره عندما روى له هذه الحادثة، بل مازحه قائلاً: "آمل أن تكون قد ازددت خبرة بالنساء مع الأيام". سارع يؤكد طبعاً، إذ ما من رجل يعترف بانعدام خبرته في هذا المضمار... والحال أن

عالم النساء بقي غريباً عنه، موصداً في وجهه، مع أنه عاش مع ثريا على مدى عشرين عاماً تقريباً. لقد أحبّ ثريا؛ كان يودّها، يحترمها، ويخلص لها. بيد أنه، ولأسباب عجز عن فهمها وتبريرها، كان ينظر إليها كزوجة فحسب، لا كامرأة. فكلمة "امرأة" ما فتئت ترمز إلى كل ما استحال عليه امتلاكه. قد يبدو الأمر مضحكاً، غير أن هذه الكلمة تصلح، على حد سواء، لوصف واجهة مخزن لبيع الكاتو مثلاً، أو الأثاث الفاخر لصالون أنيق... فعندما كان طفلاً، يتأمل بحرقة ومرارة صفوف قطع الكاتو الشهية المعروضة للبيع، كان يلازمه شعور بأن هذه الطيبات ليست لأمثاله؛ على غرار الأثاث الفاخر الذي لم يصنع برسم من هم على شاكلته. فهذه المنتجات تنضوي تحت اليافطة العريضة لعالم التخمة والترف، في حين أن زاهي البستاني ينتمي إلى عالم التقنين والتقتير... وقد تساءل أكثر من مرّة، بعد أن شبّ وغدا يتقاضى مرتباً معقولاً، لماذا لا يسعى إلى إشباع رغبة لازمته طوال عهد طفولته ومراهقته؛ لماذا لا يقصد محلاً لبيع الكاتو فيأكل ويأكل منه حتى يصاب بالغثيان؟ فما الذي يردعه عن تحقيق هذه الأمنية؟ أهو "بخله" كما كانت ثريا تدّعي؟ أم ثمة اعتبارات أخرى تلجم إرادته وتعقلها؟...

وصل زاهي البستاني إلى عند هذا الحد من تأملاته عندما واجهه سؤال جديد لم يطرأ على ذهنه يوماً: هل "الاعتبارات" عينها هي التي أملت عليه سلوكه المضحك مع الجارة سوسن؟ فربما لم يخطئ في تفسير سلوكها كما كان يعتقد. ربما أدرك في صميمه أنها لم ترتد ذلك القميص الشفّاف لتدعوه إلى الرحيل، وإنما إلى البقاء... كان لا يزال غضاً، هذا صحيح؛ لكنه لم يكن غبياً. كما أنه لم يكن جاهلاً بما يدور بين الرجال والنساء على صعيد الجنس؛ فرفاقه في الحي، وفي المدرسة،

كانوا أثاروا هذا الموضوع في حضوره. لئن ارتأى الانصراف، إذن، من دار الجارة اللعوب، فلأنه حرّم على نفسه التنعم... أجل؛ لقد حرّم على نفسه التنعّم. آن الأوان لكي يكتشف زاهي البستاني هذه الحقيقة الساطعة! لقد عمد طول حياته، إلى نصب الحواجز بينه وبين المتعة؛ بينه وبين الرفاهية؛ بينه وبين ترف الحياة...

بالأمس، وفيما كان يجالس مرهف ويروي له فصولاً من ماضيه، تأمل مطولاً قميص الشاب الحريري الأزرق، وسترته الكحلية الأنيقة، كما دقق في بشرته البيضاء الرقيقة وشعره الكستنائي الناعم. بالأمس، وفيما كان ينعم النظر في الشاب، قال بينه وبين نفسه: "إنه ابن نعمة"، أما هو، زاهي، فإنه ابن... سليمة! ابن أمه التي أرضعته، مع حليبها، طأطأة الرأس، والسعي وراء السترة، والخوف من الأعظم، وأعطنا خبزنا كفاف يومنا، والقناعة كنز لا يفنى، ونحن في واد والأكابر في واد آخر... أمه التي لم يشاهدها قط ترقص أو تغني أو حتى تضحك، والتي لم يذكرها على الإطلاق وهي عاطلة اليدين. فإن لم تكن تطبخ فتجلي، وإن لم تكن تغسل فتكوي، وإن لم تكن تحيك فتخيط... امرأة جلود، شجاعة، مستقيمة، تخشى ربّها، ولكن صارمة، حزينة، عاشت وماتت وهي في حالة طلاق مع الفرح والسعادة. فكيف يتجرأ هو على أن يمد يده ليطال ما ينشد؟

بالأمس، عندما روى حادثة الجارة لمرهف، قال له هذا الأخير: "لا ريب في أن الست سوسن ما عادت تستنجد بك إذا ما احتاجت إلى خدمة...". وبالفعل لم يحصل أن نادت عليه من جديد. غير أنه كثيراً ما سمعها، بالمقابل، تصرخ على وليد، أجير بقّال الحي، لتسخّره بطلبات مختلفة. وكان اللعين يسارع لتلبيتها. لم يكن وليد ابن سليمة...

استيقظ صالح المرشد صبيحة ذلك اليوم وهو مصمم على تنفيذ القرار الذي اتخذه ليلة الأمس، قبل استسلامه للنوم: لن يذهب إلى معهد البيطرة هذا النهار. سوف يعطّل، بخلاف بقية زملائه. لن يضرب عن الدراسة تعبيراً عن مطلب أو احتجاج، بل سينقطع عنها لأسباب شخصية محضة. فقد ضرب له مرهف موعداً، في تمام السادسة مساء، أمام مخزن "سيدتي الجميلة"؛ موعداً يخرج عن مألوفه، بل يشكل نقطة تحوّل في حياته، إذ اتفقا على أن يدخلا معاً إلى المخزن المذكور!... ولكن ما أن أكد له مرهف أنه سيكون في انتظاره في المكان المتفق عليه وفي الساعة المحددة، حتى فطن إلى أن نهاراً بأكمله قد لا يكفيه لإعداد نفسه للموعد المرتقب. فهو بحاجة إلى المرور على الحلاق لقص شعره، وعلى بائع الأحذية لشراء جزمة جديدة، وعلى مخزن لبيع الملابس الرجالية لانتقاء قميص، أو ربطة عنق تضفي على مظهره لمسة من الأناقة. ليس في مقدوره أن يبتاع بزّة مع الأسف، فميزانيته الشهرية لا تحتمل إنفاقاً بهذا الحجم؛ ولكن إذا ما ضغط على مصروفه واستدان قليلاً من زميله ماجد، استطاع أن يشتري قطعة أو قطعتين من الملابس كالتي يرتديها مرهف. قميص حريري وردي مثلاً، أو كنزة صوفية خمرية

تعترضها خطوط سود، أو لفحة بيضاء ناعمة الملمس كزغب الطير، أو أي شيء من هذا القبيل... آه، نسي أن عليه أيضاً أن يستحمّ قبل الذهاب إلى الموعد. لا أن يغسل فقط وجهه، وعنقه، وذراعيه وقدميه كما يفعل عادة، بل أن يأخذ حماماً ساخناً كاملاً. أن يفعل باختصار، كما يفعل مرهف. فهو نزيل الفندق الوحيد الذي لا تفوح منه رائحة عرق. وهو، كذلك، نزيل الفندق الوحيد الذي أبدى اهتماماً به، بل عرض عليه مساعدته. فباستثناء السيدة غانم، التي تخصّه بابتسامة كلما صادفته، فإن بقية المقيمين لم يكترثوا به يوماً. حتى شريكه على مائدة الطعام، ذلك المهووس بالكلمات المتقاطعة، لم يبادر مرّة إلى فتح حوار معه. الجميع يتجاهله، لكأنه آت من عالم آخر ويتكلم لغة أخرى. صحيح أنه دون بقية النزلاء سناً، غير أنه ما عاد طفلاً. لقد اشتكى لأمه من هذه العزلة، من وضعية المنبوذ المفروضة عليه، فسارعت تفاتح والده بما يعاني منه. فجاء حكم والده بحقه قاطعاً صارماً كما هي العادة. "صالح هو المقصّر حتماً! فلو سعى وراء الآخرين، لوجدهم".

ولكن هل سعى وراء مرهف؟ مع ذلك جاء الشاب إليه. تطوع لأن يأخذ بيده مع أنه لم يطلب منه شيئاً؛ بل لم يتفوه بكلمة واحدة! وابتسم صالح وهو يستذكر تفاصيل لقائه بالأمس مع مرهف. كان يمرّ بجوار مخزن "سيدتي الجميلة" لدى عودته من المعهد؛ يذرع، بالأحرى، الرصيف الذي يجاوره ذهاباً وإياباً. ولمّا كان منشغلاً بما يدور داخل المخزن لم ينتبه إطلاقاً لمرهف الذي كان يقطع الطريق، آتياً إليه من الطرف الآخر للشارع. حين أصبح الشاب على مسافة خطوات منه حيّاه بصوت عالٍ، فجفل. ذلك أنه يخشى دوماً أن يُفاجأ بظهور أبيه أمامه عندما يؤدي

حركته المكوكية أمام مخزن أحلامه... كانت علائم الارتباك، بل الخوف، ظاهرة بوضوح على وجهه إذ بادره مرهف قائلاً: "ما دهاك... هل خلتني شبحاً؟... هل توهمت أني عزرائيل جاء يقبض روحك؟" عند ذاك انشرح صدره وراح يضحك. فما من إنسان كلّمه على هذا النحو قبلاً. ومن دون سابق إنذار سأله مرهف: "ما الذي يشدّك إلى هذا المكان بالذات؟ إن مفارقته تعزّ عليك كثيراً على ما يبدو لي، فما أن تبلغه حتى تستحيل عليك مبارحته". وقبل أن يفتح فاه ليعارض أو ينفي كان مرهف يضيف: "ليست هذه هي المرّة الأولى التي أشاهدك فيها وأنت تدور على نفسك على هذا الرصيف. قل لي بصراحة: ما الذي يشدّك إليه؟". لم يحرك شفتيه بردّ، بل أشار بيده إلى المخزن الذي كان قد تحوّل ساعتئذ إلى عش للحسناوات. "ولماذا تبقى واقفاً أمامه، عاد مرهف يسأل؛ لماذا لا تدخل إليه؟". وإزاء الصمت التي بقي يلوذ به تابع مرهف، وهو يقبض على ذراعه: "تدخل معاً، ما رأيك؟... أنا أتولى الكلام مع صاحبة المخزن وأنت مع الزبونات". رفض العرض بحركة من رأسه؛ فبلبلته كانت أشد من أن تسمح له بمثل هذه الخطوة. كان بحاجة إلى أن يستعد، إلى أن يهيئ نفسه، قبل أن يقدم على مثل هذه المغامرة. وبصعوبة فائقة تمتم: "غداً، نزور المخزن غداً إذا شئت". فكان أن ضرب له مرهف موعداً في تمام الساعة السادسة! اليوم إذن، اليوم، سيجتاز عتبة "سيدتي الجميلة" وينضم إلى سرب اليمامات الغانجات الضاحكات. لن يخجل ولن يرتهب. فسوف يكون في صحبة مرهف، وسوف يكون نظيفاً، مهفهفاً، وأنيقاً مثل مرهف أيضاً. آه، ينبغي ألا ينسى أنه هو الذي سيكون مقصوداً بكلمة "طبيب"؛ فقد نبهه مرهف إلى أنه سيلجأ إلى هذا اللقب عندما سيتوجه إليه بالخطاب.

رفضت أن تصحب غازي المصرّ على زيارة خالته. ليس من عادتها أن ترفض، بيد أنها فعلت ذلك اليوم. لماذا؟ سؤال تصعب الإجابة عنه. فأن تكون خالة زوجها امرأة قاسية القلب سليطة اللسان، فهذا ليس بالأمر الجديد. وأن تكون زيارتها مصدر انزعاج وكرب واكتئاب لها، فهذا ليس بالجديد أيضاً. ومع ذلك فقد واظبت على زيارتها شهرياً منذ ربع قرن من الزمن؛ منذ عهد خطوبتها. نزولاً، طبعاً، عند رغبة غازي الحريص على مراعاة تلك الخالة الثرية التي تزوجت ولم تنجب. أما اليوم، فقد رفضت الذهاب إليها. استغرب غازي موقفها قبل أن يعارضه ويحتج عليه. غير أنها تمسكت به. وكاد يخرج عن طوره إزاء هذا التمرد المفاجئ. "وبماذا أجيب خالتي عندما ستسألني عنك؟"، صاح في وجهها. "قل لها إني مريضة"... غادر عندها وصفق باب الغرفة وراءه. لم تعاتب نفسها لأنها أغضبته. لم تلم ذاتها لأنها خرجت عن طاعته. بل شعرت بارتياح لأنها أمست بمفردها؛ بل أحسّت بشيء من الغبطة لأنها، وللمرة الأولى، قالت له "لا".

غازي غانم ليس بالإنسان السيء ولا بالزوج المستبد. إنه رجل كسائر الرجال، له عيوبه وله فضائله... إنه ينزع، ولا ريب، إلى إصدار

الأوامر، إلى فرض إرادته. ولكن، أليست تلك حال الرجال قاطبة؟ كان يفترض بها، هي، أن تقاوم هذه النزعة، مواجهة أو مواربة، على غرار ما تفعل النساء عامة. قد تكون هي، في النهاية، المسؤولة الأولى عن الخلل الجذري الذي تعاني منه علاقتها الزوجية؛ فلئن لم تكن "مسؤولة" بالمعنى التام للكلمة، فانها تبقى "شريكة" ان جاز القول. أحياناً يخال لها أنها فطرت على التسامح مع الآخرين، وعلى النفور من المواجهة والمشاكسة والحدّة. وأحياناً أخرى تميل إلى تحميل ظروف نشأتها والتربية التي تلقتها مسؤولية تساهلها مع الآخرين، تساهل قد يصل إلى حد الخنوع. كما هي الحال في علاقتها مع غازي. فقد ترعرعت في دار تسودها عقلية محافظة وتديرها، فعلياً، جدّة صارمة تشيد، صبحاً ومساءً، بالحياء، والطاعة، والتعفف، والتضحية، والصبر، والصمت، والانصياع... لدى الفتيات؛ وكان خطاب جدتها يستهدفها على نحو خاص لأنه ما كان موجّهاً، أصلاً، إلى شقيقيها، ولأن هند، شقيقتها الكبرى، كانت "تعطيه أذنها الطرشاء" كما كانت تردد بسخرية. كانت هي المتلقية الوحيدة له، وقد تبنّته والتزمت به واعتبرته دليلها إلى الصراط المستقيم؛ فقد كانت طفلة وديعة وكانت جدتها ذات سطوة وهيمنة...

إن الحقيقة تقتضي منها أن تقرّ وتعترف بأن نزعتها المسالمة، وتساهلها مع الآخرين، وطواعيتها بشكل عام، خصال عادت عليها بالفائدة. فهي، في نظر الناس، إنسانة في منتهى اللطف والتهذيب، واسعة الصدر، طيبة القلب وحلوة المعشر. ولاريب في أن هذه الخصال هي التي دفعت بغازي إلى أن يعقد عليها؛ فطالما كرر على مسمعها أنه ما

وقع اختياره عليها إلا لأنه ارتاح إلى طباعها. لم يقل لها مرة لأنها جميلة، رشيقة، جذّابة أو لأنها خطفت قلبه أو خلبت لبّه أو شيئاً من هذا القبيل... وبدلاً من أن يساعدها على تنمية شخصيتها، على الخروج من قوقعة خجلها وامِّحائها، إذ كانت لا تزال في السابعة عشرة عندما تزوجها، عمد إلى تعزيز استسلامها وخنوعها بأن نصّب نفسه ولياً على إرادتها وسيداً على خياراتها.

ربما كان موقفه مبرراً في البداية، وإن في حدود؛ وذلك بالنظر إلى طراوة عودها وعدم نضجها. غير أنه تحول إلى ضرب من العسف والاستبداد مع الأيام. فبالرغم من تقدمها في السن، واكتسابها، بالتالي، الخبرة والمعرفة، فإن المعادلة التي تسيّر علاقتها الزوجية بقيت على حالها: غازي يقرر وليلى تنفّذ. تنفّذ حتى عندما يكون كيانها برمته متمرداً على القرار المتخذ. هذا ما حصل عندما خرج غازي بنغمة الانتقال إلى هذا الفندق. فقد انتزعت نفسها بالقوة، استأصلتها بالأحرى، من البيت الذي ترعرعت فيه وحيدتها، مهى. انفصلت عن الدار التي عاشت فيها أكثر من ربع قرن، مكتنزة الذكريات في زواياها، مرسية جذورها في أركانها. داست على عواطفها، تنكرت لأثاث عايشها على مدى سنين، فرّطت بلوحات، وتماثيل صغيرة، وآنية مزخرفة، وقطع تزيينية متنوعة كانت قد جنتها بحماسة ومحبّة، وجاءت إلى هذا الفندق. وافقت على أن تستقر في غرفة يتيمة، حزينة ونكرة، لأن غازي شاء ذلك. ادّعى أنه لم يقدم على هذه الخطوة إلا من أجلها، ولأنه أعلم منها بمصلحتها. فالإقامة في الفندق ستحررها من الأعباء المنزلية كما أنها ستجفف، مع الأيام، دموعها التي ما فتئت تسيل

بسخاء بعد اغتراب مهى. فكلما كانت تدخل إلى غرفة ابنتها كانت تجهش بالبكاء، وكلما كانت تتأمل أشياءها كان يغلب عليها الحزن والحنين فينهمل دمعها مدراراً.

ابتسمت ليلى بمرارة وهي تتأمل جدران غرفتها الفندقية العارية. فلو كان غازي الآن أمامها، ولو كانت تتجرأ على مصارحته، لقالت له بالحرف الواحد: إن الحزن على فراق ابنتي سيظل يلازمني سواء أأقمت في قصر أو داخل قبر؛ أما ما تسميه أنت "أعباء منزلية" فقد كانت تسليتي الوحيدة، تشغل ساعات نهاري وفراغ حياتي معك. وأنا لا أزال شابة في مطلق الأحوال، شئت أم أبيت، وقادرة بالتالي على النهوض بواجباتي. إصرارك، إذن، على أن نقيم في فندق غير مبرر؛ فهو لم "يحررني" لا من القنوط ولا من العناء والتعب. ولكن، إن شئت الحقيقة، فقد ساعدني على التحرر نسبياً من عبء لم يخطر على بالك، لم تفطن إليه يوماً: عبء الانفراد بك! أجل؛ وثق بأنه عبء ثقيل، يفوق قدرتي على الاحتمال أحياناً. هنا، على الأقل، أجد من يؤازرني على حمله. فمع انتقالنا إلى "بانسيون العائلات" ما عدت أذنك الصاغية الوحيدة. بت تغرق سواي بفيض كلامك، ولعل هذا ما أتاح لي فرصة الإفلات قليلاً من دوامة خطبك السرمدية.

لو كانت تتجرأ على مصارحة غازي فهذا ما كانت ستقوله له. ولكن، أكانت ستتابع، فتكشف له عن دوافع تمردها المباغت؟.. فيوم الأمس عادت ربع قرن إلى الوراء؛ إلى أيام عزوبتها؛ إلى عهدها ما قبل غازي؛ إلى زمن كانت تشعر فيه بأنها امرأة وبأنها موضوع رغبة. لم يحصل أي أمر مشين طبعاً؛ لم تسمح لنفسها بأن تحيد، ولو قيد أنملة،

عن ذلك "الصراط المستقيم" العزيز على وجدانها وقلبها. غير أنها لم تتدرّع، عامدة متعمدة، ضد كلمات أكرم حداد المشحونة باللطف والإعجاب؛ لم تنكفئ على ذاتها إزاء سعيه إلى التقرب منها؛ لم تجفل وتتسمر في أرضها كحصان حرن عندما أمسك بذراعها ليساعدها على تخطي حفرة؛ لم تشح بنظرها عنه كلما تقصّد توجيه كلامه إليها...

بالأمس خرجت مع غازي في نزهة إلى البحر وكان أكرم حداد بصحبتهما. هو الذي كان اقترح تلك النزهة التي توّجتها جلسة في "مقهى النورس". وعلى مدى ساعتين تنعمت بحضورها؛ أجل بحضورها، هي بالذات. فقد كانت حاضرة من خلال اهتمام أكرم بها. كان ينظر إليها، فيراها؛ في حين غدت نظرات غازي، ومنذ زمن، تخترقها، فكأنها لوح من الزجاج الشفّاف لا تبصره العين فلا يستوقف النظر. ولمَ تؤنب نفسها على المشاعر التي اختلجتها؟ فهي لم تقترف إثماً؛ لم تأت منكراً؛ كان زوجها يرافقها في مطلق الأحوال. كما أن أكرم لم يخرج، ولو لحظة واحدة، عن أصول اللياقة. كل ما هنالك أنه أبدى عن إعجابه بها على نحو لبق، فأحست وكأن ماء دافئة تنسكب على جسدها في يوم شتائي قارس البرد.

نزهة الأمس أيقظتها من نوم عميق؛ من شبه حالة سبات استمرت على مدى سنين، واشتدت واستفحلت بعد رحيل مهى. فطالما كانت ابنتها تشاطرها حياتها، كان لوجودها معنى. ولكن بعد أن افترقت مضطرة عن ابنتها، بعد أن رضخت ووافقت على زواج أراده غازي لأن أسرة العريس، المغتربة إلى كندا، "قد جمعت من المال ما لا تحرقه النار" كما كان يحلو له أن يردد، بعد أن انتزعت منها مهى وأصبحت القارات

وآلاف الكيلومترات تفصل بينهما، فقدت بالتدريج علاقتها بالواقع وراحت تغور، أكثر فأكثر، في عالم ضبابي، بل سديمي.

لن تجحف بحق غازي وتحمّله كامل مسؤولية ما حصل. فلو عارضت بشدّة مشروع الزواج؛ لو ألبت ابنتها على قرار والدها؛ لو استشرست من أجل إبقائها في جوارها، لربما جاءت جهودها بنتيجة. بيد أنها لم تفعل. اكتفت بأن أعطت رأيها في الموضوع، وكان رأيها سلبياً طبعاً. ولكن ما أن انتقد غازي موقفها، مؤكداً بأنها على ضلال وبأنه على صواب، حتى خنعت ولاذت بالصمت.

اليوم، وللمرة الأولى، واجهت قراراً لزوجها بكلمة "لا" قاطعة ونهائية. لقد صفق باب الغرفة وخرج. لا بأس. فمنذ ربع قرن وهي تجاريه، تلبّي مشيئته. آن الأوان كيما يأخذ بدوره خياراتها في الحسبان. لن تذهب إلى دار خالته!...

لو لم تحصل على توكيد صريح وقاطع من مرهف لظلّت تعتبر أنها توهمت، أنها تخيلت تخيُّلاً أن حنان ماضي قد جاءت إلى بلدتهم وألقت التحية عليها، هي سلمى فخري، بل ابتسمت لها أيضاً! حدث ذلك قرابة الثالثة بعد الظهر وغير بعيد عن مركز عملها، في الوسط التجاري. كانت تهم بمغادرة "مكتبة الفارابي"، بعد أن ابتاعت أقلاماً ومساطر وشكّالات لحساب شركتها، عندما رأت مرهف يتقدم في اتجاهها وفي صحبته امرأة، بالغة الأناقة، ما كان وجهها بغريب عنها. وما احتاجت إلا لثوانٍ كيما تتعرف فيها على حنان ماضي، نجمة مجتمع العاصمة. تعرّفت عليها، ومع ذلك لم تصدِّق عينيها. كانت حنان ترتدي معطفاً مخملياً بنياً، صممه ولا ريب خياطها المفضّل عزمي حرب الذي كثيراً ما يظهر إلى جوارها في الصور التي تتناقلها المجلات، وكانت قد أحاطت عنقها بشال طويل، خردلي اللون. حيّاها مرهف بحركة من رأسه عندما دنا منها. وحذت حنان حذوه تلقائياً، من غير أن تعرف السبب. أراد مرهف أن يصافحها، غير أنه عدل إزاء ذراعيها المحملتين؛ اكتفى بأن ابتسم وسأل عن أحوالها، وابتسمت لها حنان ماضي بدورها بعد أن ألقت عليها التحية. ومضى الشابان في حين ظلّت هي واقفة، متسمّرة

في أرضها، عاجزة عن فك نظرها عنهما. كانا يسيران جنباً إلى جنب، جسدين رشيقين، قامتين فارعتين؛ وفي لحظة من اللحظات أمسكت حنان بذراع مرهف، فأحنى هذا الأخير رأسه عليها قبل أن يحرر ذراعه من ذراعها ليحيط بها كتفيها. ثم غابا عند منعطف، مخلّفين وراءهما، في الطريق التي اجتازا، وهج عيد مشحون بالوعود.

لدى عودتها من العمل راحت تبحث عن مرهف؛ لم تصادفه في بهو الفندق ولا في المشرب الصغير المحاذي للمطعم. سألت حاكم عنه فأجابها بأنه قد خرج صباحاً ولم يعد بعد. صعدت إلى غرفتها، وأنجزت بسرعة عملاً للشركة كانت قد كلفت به على نحو إضافي. أعادت، بعد ذلك، تسريح شعرها وترتيب هندامها؛ تمكيجت قليلاً وهمّت بالنزول إلى المطعم. كانت قد أصبحت في منتصف السلّم عندما تواجهت مع مرهف الصاعد إلى غرفته. وبجرأة شدهتها استوقفته لتستفسره عن هوية السيدة التي كانت في صحبته. "خيّل إليّ أنها حنان ماضي" قالت، أجاب "بالفعل!"، وواصل صعوده. تفوّه بهذه الكلمة وكأنه يؤكد على حقيقة مسلّم بها؛ على بديهية! لم تلمس في لهجته ادعاء ولا عجرفة، لكأنه من الطبيعي جداً أن يكون على علاقة حميمة مع حنان ماضي مع أنه واحد من نزلاء "بانسيون العائلات"؛ أي شخص يفترض فيه أن يكون في سوية سائر نزلاء هذا الفندق، بالرغم من أناقته ووسامته وذلك الإشعاع الداخلي الذي يجعله ينير كل ما من حوله. أتراه إذن سليل أسرة غنية شاء أن يتوارى عن الأنظار فاختار هذا النزل الوضيع؟ ربما؛ بل على الأرجح، وإلا لاستحال عليه أن يصادق فتاة في منزلة حنان ماضي الاجتماعية. لقد صدق حدسها بخصوصه في مطلق الأحوال. فمنذ

أن شاهدته للمرة الأولى أدركت أنه ينتمي إلى المجتمع الراقي وان نجوم هذا المجتمع وحدها تليق بحسنه ورهافته. ولكن، أيعقل أن توافيه حنان ماضي إلى هذا الفندق؟! أمن الممكن أن يشاركهم عشاءهم؟!... لقد عاد مرهف إلى "بانسيون العائلات" بمفرده؛ غير أنه قد يكون في انتظارها، هنا... ولمَ لا؟ وهل في هذه البلدة فنادق أو مطاعم ذات نجوم خمس كيما يذهبا إليها؟

كانت سلمى ستمضي في أسئلتها وتكهناتها لو لم تباغت بسمير بحري منتصباً وسط بهو الفندق، يحمل بيده اليمنى حقيبة ملابسه وباليسرى حقيبة نماذجه الطبية. وكان حاكم، الجالس خلف مكتبه، يلوّح له بمفتاح نحاسي انتزعه من فوق لوح خشبي علّق في جواره. وضع سمير حقيبة سفره على الأرض ومدّ ذراعه ليتناول المفتاح. أعاد رفع الحقيبة بعد ذلك واستدار نحو السلّم حيث كانت سلمى تقف عند أسفل درجاته. حيّاها بابتسامة عريضة وهو يدنو منها فألفت نفسها تقول: "هذا يوم المفاجآت!". فمن عادة سمير بحري ألاّ يجيء إلى الفندق إلا مرة كل أسبوعين. والحال أن أياماً ستة فقط كانت انقضت على رحيله. سألها على الفور: "آمل أن تكون هذه المفاجآت سارة بالنسبة إليك؟". فابتسمت وهي تجيبه: "بعضها على الأقل". بدا سمير وكأنه سيهمّ بارتقاء درجات السلّم، غير أنه راوح في مكانه؛ قال بعد ذلك، بنبرة من أفلح بصعوبة في التغلب على تردده: "ما كان مجيئي متوقعاً، غير أن ظروفاً طارئة قضت بأن أمضي ليلتي هنا... فهل من مانع أن أشاركك طاولتك على العشاء؟ فطاولتي المعتادة قد لا تكون شاغرة... أرجوك أن تجيبي بصراحة، فأنا...". وقاطعته سلمى لتؤكد بأن لا مانع عندها

على الإطلاق. وكانت ستضيف بأن من حقه أن يجلس حيثما شاء، لأنه لا يجوز لأي نزيل أن ينفرد بطاولة ويحتكرها لحسابه، غير أنها آثرت أن تلزم الصمت... ابتسم سمير بحري عندها، وباشر صعوده بعد أن أوضح أنه سيعلم الست أمينة بهذا الترتيب، فأجابت برقة لم تعهدها قط في صوتها من قبل: "لا تتعب نفسك، فسوف أهتم أنا بالأمر". وفيما كان سمير بحري يواصل صعوده على السلم كانت هي تتخيل تينك القامتين الرشيقتين الفارعتين اللتين أضفتا أجواء عيد على البلدة الكئيبة.

كانت هي المرّة الثالثة التي يعاود فيها حاكم طرح السؤال عينه على أمينة. وبما أنها كانت متعبة لحظتها، داخلة في سباق مع الزمن لتقديم العشاء في موعده المحدد، نهرته قائلة: "منذ طلوع الفجر وأنت تطاردني بهذا السؤال: ألم تلمسي جديداً في أجواء الفندق... وماذا يتعين عليّ أن ألمس؟ هل جاءتنا ملكة سبأ؟ هل دفع زاهي البستاني بقشيشاً للخادم؟ هل خفض غازي غانم صوته؟ ... قل لي أنت ما الجديد الذي يفترض فيّ أن ألمسه بدلاً من أن تكرر طرح سؤالك إلى أبد الآبدين!"... تنهّد حاكم وقال في سرّه: "هذه المرأة مستحيلة! مستحيلة!". فما ضرّها لو استفسرته عن دوافع ذلك السؤال؟ وبقدر من الاهتمام والتفهم؟ فلمن يكشف عن كنه أفكاره ومشاعره ان لم يكن لزوجته؟ أفليست رفيقة حياته؟... لقد كبر في السنّ، ولكنه لم يخرِّف بعد. لا يزال متيقظاً بما فيه الكفاية كيما يلمس أبسط التحولات التي تطرأ على فندقه. وثمة جديد في أجواء هذا الفندق، أشاءت أمينة أم أبت!... فمتى كان الدائمون من النزلاء يجتمعون في البهو قبل موعد العشاء وبعده؟ متى كانت تنعقد لهم حلقات تعترضها النقاشات المحتدمة أو نوبات الضحك الجماعي؟ متى كانوا يلقون التحية عليه، لدى خروجهم من الفندق أو

لدى عودتهم إليه، بنبرة مشحونة بالحماسة والحيوية؟ متى كانوا يشيدون بطبخ أمينة التي لم تسمع منهم كلمة مديح واحدة من قبل؟ بل متى كانوا يعتنون بمظهرهم كما غدوا يفعلون؟ يسرِّحون شعورهم، مثلاً، قبل توجههم إلى المطعم، أو يبدّلون هندامهم... قد لا تقع مثل هذه التفاصيل تحت إدراك أمينة؛ فعلاقتها بالفندق تبقى خارجية، نفعية في المقام الأول، وليست علاقة شبه أبوية كما هي الحال بالنسبة إليه... حتى هو، بالمناسبة، غدا يشعر بشباب جديد يدبّ فيه. بات يفكر بالتحسينات التي يمكن أن يدخلها على بانسيونه، بل... وعلى شخصه أيضاً! بالأمس فاجأ نفسه يتفحص شكله في المرآة، يدقق فيه بعين ناقدة. لم تفته ملاحظة كرشه النابقة من تحت كنزته الصوفية التي ضيّقها الغسيل المتكرر، ولا أسنانه التي ضرب فيها الاصفرار من شدة الإهمال، ولا ترهل خدّيه، ولا انتشار البقع البنية فوقهما... لم يرق له ما شاهده، فعزم على إصلاح ما يمكن إصلاحه. بدأ بغسل أسنانه وباستبدال الكنزة الضيّقة بسترة تغطّي كرشه وتحجبها عن الأنظار. وضحك في سرّه. فكيف يريد من أمينة أن تلاحظ تلك التحولات الصغيرة، شبه الخفية، التي طرأت على الحياة في الفندق، وقد فاتتها ملاحظة السترة التي يرتديها منذ البارحة؟

إن شاء أن يعطي صورة شاعرية عما يجري لقال إن نسمة ربيعية تعربد في فندقه، في عزّ موسم الشتاء؛ وقد هبّت هذه النسمة مع قدوم مرهف؛ إنه متأكد من ذلك وإن عجز عن تحديد العلاقة السببية بين مجيئه وبين سلسلة التحولات تلك. فالشاب لا يتدخل في شؤون أحد؛ وهو لا يطلق أحكاماً ولا ينشر أفكاراً. إنه يعامل الجميع بلطف

وتهذيب، ولا يسعى إلى توطيد علاقة مع نزيل دون آخر. وهو، علاوة على ذلك، مقلّ في الكلام، يصغي بإمعان ويتحدث باقتضاب. أتراه يمدد إقامته في الفندق؟ حاول بالأمس أن يستفسره بهذا الصدد، فكان جوابه غامضاً، ملتبساً: "لم أحسم أمري بعد" قال. ومع أنه لم يتوقع يوماً أن يغدو مرهف من نزلائه الدائمين، فقد شعر بانقباض في صدره عندما فكر باحتمال رحيله الوشيك.

كان حاكم قد بلغ هذا الحد من تأملاته عندما تنبه لأمينة تكلمه بصوت خافت: "هل رأيت البيطري، سألت؛ أعني الشاب الريفي؟ لقد عاد إلى الفندق للتو. كدت، بصراحة، ألا أتعرّف عليه. كان يسير مرفوع الرأس، وكان يبتسم، أجل، يبتسم". شعر حاكم بنشوة المنتصر لدى سماعه هذا الكلام؛ وبلهجة معلم يخاطب تلميذاً عقّب قائلاً: "أأدركت، أخيراً، مقصدي يا أمينة؟" زمّت شفتيها احتجاجاً، لأنه يصعب عليها الاعتراف بخطأ أو بتقصير، لكنها لم ترمه بواحدة من عباراتها القاسية. وكانت قد ابتعدت عنه بضع خطوات حين استدارت نحوه وقالت، بنبرة محايدة، كمن طولب بإعطاء رأي موضوعي: "لماذا لا تواظب على ارتداء سترة؟ لست بشغّيل كيما تهمل مظهرك، بل صاحب فندق!"

لحالته، التي استفسرته عن أسباب تغيّب ليلى، قال: "شعرتْ بنفسها متعبة فاعتذرت عن المجيء". وأمام مريم، زوجة صديقه شوقي، ادّعى بأن دوراناً مفاجئاً قد أصابها فاضطرها إلى لزوم غرفتها... ما النغمة التي سيخرج بها اليوم ليبرر رفضها الذهاب إلى دار شقيقته الصغرى، نجلاء؟ أيزعم أنها تعاني من ألم شديد في أسنانها؟ من تشنج في معدتها؟ من ارتفاع في حرارتها؟... إذا ما استمر على هذا المنوال، فإن ليلى سوف تصاب بالأمراض والعلل على جميع أنواعها في أقلّ من شهر... إذا ما استمرت هي على هذا المنوال بالأحرى. أي إذا ما بقيت ترفض مرافقته في زياراته العائلية والاجتماعية. ما الذي جرى لها؟ ما الذي جدّ عليها؟ يسألها فتجيب: "لا شيء على الإطلاق... ولكن، من الآن فصاعداً، لن أرغم نفسي على زيارة أناس لا أرتاح لعشرتهم". كلام مراهقات لا يليق بامرأة في سنّها... فزيارة المعارف واجب لا دخل فيه لمثل هذه الاعتبارات التافهة.

المشكلة أنها لا ترفع صوتها عندما تجيبه نفياً؛ فهي ما زالت تتوجه إليه بالهدوء والاتزان واللطف الذي عهده فيها... ما فتئت ترعاه بالاهتمام عينه، وتحيطه بعطفها وحنانها. ولكن ما أن يقترح عليها

الذهاب إلى دار فلان أو علاّن حتى تبادر إلى الاعتذار. تعتذر بكلمات وديعة ولكن صلبة كالصّوان! على مدى أسبوع بأكمله لم ترافقه إلاّ في زيارة واحدة، لدار بهجت ربّاط، العوّاد المسنّ المقيم على تخوم البلدة، في دار قديمة تطل على البحر. هي التي كانت قد اقترحت هذه الزيارة في الحقيقة؛ "علينا أن نذهب إليه، قالت، لأنه ما عاد يقوى، هو، على مغادرة داره". ما عاد يقوى على المشي، هذا صحيح، غير أنه ما زال قادراً على العزف. لذلك فإن أي حديث في حضوره أمر مستحيل. تبدأ برواية قصة عليه، أو بتفصيل حدث مثير له، فيقاطعك، وأنت في منتصف كلامك، ليسمعك بعضاً من تقاسيمه... وهذا ما حصل أثناء الزيارة الأخيرة، زيارة كان في غنى عنها. فعلى مدى ساعتين لم يفلح في سرد المقلب المذهل الذي ذهب ضحيته يوسف النجّار، جار شقيقته الكبرى، الذي أقام وليمة فاخرة لمغترب انتحل شخصية مزيّفة. كانت حكاية هذا المقلب ستشرح حتماً صدور الحضور. ذلك أن دار بهجت العوّاد لم تكن خالية عندما طرقا بابها؛ خمسة أشخاص كانوا قد اجتمعوا صدفة فيها. غير أن العازف العجوز لم يدع لأحد فرصة لرصف عبارتين جنباً إلى جنب. احتضن آلته وهات يا عزف!... والأنكى من ذلك كله أن ليلى لم تكفّ عن تشجيعه؛ تمتدحه، تصفّق له، تطالبه بالمزيد. عاتبها على سلوكها وهما في طريق العودة إلى الفندق، فاستغربت موقفه. "لقد ادخلنا الفرح إلى قلبه، قالت؛ أفلم نزره بهذا الهدف؟" لا؛ فالناس تزور بعضها كيما تتبادل الأحاديث، كيما تتكلم، لا كيما تنصت إلى عوّاد عجوز!

كيف يفرض الإنسان حضوره إن لم يتكلم؟ فهل من سينتبه لوجوده

لو ظل صامتاً؟... إذا كان السكوت من ذهب، كما يقول المثل الشائع، فإنه، شخصياً، يفضل عليه فضّة الكلام! وذلك منذ نعومة أظافره. فهو الابن الأصغر لأسرة من سبعة أولاد. أسرة تعيش تحت سقف واحد مع جدّين، وعمّة، وخادمة شبه مخبولة لا تكفّ عن الصراخ. كان هو الابن الأصغر وكان صوته الرفيع يضيع وسط الضجيج الدائم السائد في البيت. فإن اشتكى، أو احتجّ، أو اعترض، أو طالب، عجزت حباله الصوتية عن إبلاغ رسالته إلى أحد من ذويه. كان يلجأ، مضطراً، إلى البكاء والعويل كيما ينجح في اجتذاب اهتمام أمه أو جدّه. فجدته كان سمعها ثقيلاً، ووالده كان ينزوي في غرفته فور عودته إلى البيت. أما أشقاؤه فلو سمعوه يبكي شهوراً بطولها لما أعاروا نحيبه بالاً.

عندما كان طفلاً كان يملك سلاحاً: البكاء. ولكن، عندما شب، ما عاد يستطيع شهره. فماذا كان سيقول عنه الناس لو شاهدوه يبكي؟ "أنظروا إلى هذه الحرمة..."، هذا ما كانوا سيقولون. والحال، لئن خسر سلاحاً مع بلوغه، فإنه لم يبق مجرداً، أعزل. فقد اخشوشن صوته وارتفعت نبرته، وغدا قادراً على شق طريقه نحو آذان بعيدة كما لو أنه محمول إليها بمكبّر. صوت غازي غانم بات يسمع، وبقوة؛ وكان، هو، أول المنتشين بسماعه. شغف بالكلام مذّاك، بتلك الأداة الطيّعة لفرض وجوده على الآخرين. غدا يجمع النوادر والحكايات كيما يرويها أمام حضور. حفظ الأمثال الشعبية عن ظهر قلب، واهتم برصد الصور البيانية في كل ما يقرأ، كيما يطعّم حديثه بالعبارات المنمّقة والكلمات البليغة. وبفضل جهوده المتواصلة تحوّل إلى "نجم" السهرات والاجتماعات العائلية. هو يتكلم والحضور يصغي. ولطالما أصغت إليه ليلى بصمت

المتعبد! إنها تجيد الاستماع في الحقيقة! تنصت باهتمام ولا تسعى إلى مقاطعة المتكلم، أزوجها كان أم سواه من الآدميين. لقد أحبها منذ لقائهما الأول لأنها استمعت إليه بشغف؛ بدت له وكأنها تتجرع كلماته، تحتضنها في قرارة ذاتها، تسهر عليها وترعاها. أدرك، منذ لقائهما الأول، أنها الزوجة التي يبحث عنها؛ امرأة صموت، هادئة، متّزنة، ووديعة. لم يكن يسعى وراء جمال المظهر، أو نضوج العقل، أو عراقة النسب، علماً بأن ليلى مقبولة الشكل، متعلّمة ومتحدرة من أسرة محترمة. كان هدفه الأول العثور على رفيقة يفتح لها صدره، أي يروي لها كل ما يدور في خاطره. رفيقة تسلّمه زمام أمرها فيقودها حيثما شاء. رفيقة تكون، على غرار الكلام، أداة طيّعة بين يديه، يستند إليها لفرض وجوده. ولم تخيّب ليلى الآمال التي عقدها عليها. فقد عاشا في انسجام تام، ولم يتفق يوماً أن تأبت عن الأخذ برأيه. إلى أن حصل ذلك التحول المفاجئ في سلوكها... فما الذي جعلها تعصاه؟ ترفض له طلباً؟ ولكن، أتراه هو الذي تغيّر؟ ضعف؟ تراجع؟ ارتد إلى عهد طفولته؟... إلى زمن كان لا يحصل فيه على إجابة مهما ألحّ في طلبها؟... إلى زمن كان صوته فيه لا يسمع؟... شيء مذهل؛ بل مرعب؛ لابد من مفاتحة ليلى بالأمر.

إنه وحده المسؤول عما حصل؛ فلو لم يبادر إلى الاتصال بحنان لما وافته على جناح السرعة، ولما كان ذلك الوداع المخزي بالنسبة إليها، والمريك والمزعج بالنسبة إليه. وحده المسؤول عما حصل؛ غير أنه يبقى معذوراً. فقد توجب عليه أن يعطي من أخباره بعد أن رحل دون سابق إنذار. ولكن، ألم يكن من الأفضل أن ينتظر قليلاً؟ أن يدع للوقت فرصة كيما يبلسم الجراح؟... كانت حنان ستفقد صوابها لو فعل؛ فقد عاشت جحيماً حقيقياً على مدى أسبوع، كما أكدت وكررت، لأن أخباره قد انقطعت عنها كلياً. "ذهبت إلى حد التساؤل أن كنت لا تزال في هذه الديار، بل في هذه الحياة" قالت... المشكلة في علاقته مع حنان أنه ينتهي دوماً إلى إيلامها، أتصرف على نحو سلبي أم إيجابي.

لدى وصولها بدت وكأنها قد صمّمت على طيّ صفحة الحزن والانجراح. كانت تبتسم عندما نزلت من القطار، بل كان وجهها يشع غبطة. عانقته بحرارة وهمست له، فيما كانا يهمّان بمغادرة رصيف المحطة: "جئتك ليوم واحد، لبضع ساعات نعيشها معاً كعاشقين فتيين. لن نسأل عن الماضي، ولن نخطط للمستقبل؛ حسبنا الحاضر وان كان أجله قصيراً". وتابعت بعد ذلك تقول: "تلك هي أول مرّة أستقلّ فيها القطار. حرصت على ركوبه كيما أجدك في انتظاري على الرصيف؛ كما

في الأفلام السينمائية؛ كما في الروايات الخالدة". فمازحها قائلاً: "حذارِ من التشبيه؛ فأرصفة المحطات التي تحتضن اللقاءات السعيدة هي، أيضاً، حلبة الوداعات المفجعة..." انبرت عندها تجيب: "سوف نشذ عن القاعدة ونفترق بهدوء وصفاء، ريثما نلتقي ثانية". بيد أن "الهدوء والصفاء" الموعودين اتضحا، في النهاية، حزناً وتجهماً ودموعاً...

الساعات الأولى من نهارهما انقضت في انسجام وتناغم مطلقين. طافا عبر شوارع البلدة، عرّجا على بعض المخازن، قصدا البحر، توقفا عند الباعة المتجولين، أكلا ذرة مشوية، شربا عصير رمّان، تسامرا، ضحكا، وعرفا نشوة الحبيبين اللذين يصنعان سعادتهما حتى من أبسط الأمور. يذكر أنه، في لحظة من اللحظات، وبّخ نفسه على رحيله المباغت ونعت نفسه بالغبي والأحمق. كانا يسيران على كورنيش البحر وكانت الريح تصفق بقوة. انتابه سعال خفيف، فأصرّت حنان على إعطائه شالها. حاول أن يرفض، ولكنها رفعت الشال عن عنقها وأحاطت به عنقه من دون أن تولي اعتراضه بالاً. "أنا أقوى منك بنية، قالت؛ ثم اعتبره امتداداً لي. فكأني أعانقك في شارع عام وفي وضح النهار". "أوافق على العناق، أجابها، غير أني أحتج على النسيج المزركش الذي لفّحتني به؛ ترى، لو شاهدني واحد من معارفي، بمَ كان سيعلّق على هذا المزيج من الرسوم والألوان؟ ألن يقول: لقد اختلطت الأمور على مرهف فغدا يبتاع ملابسه من المخازن النسائية؟". ضحكت وأجابت: "ربما يقول ذلك؛ ولكن ثق بأنه سوف يقصد واحداً من تلك المخازن على وجه السرعة لشراء شال مزركش، ملوّن، يحيط به عنقه. وهكذا تكون قد أطلقت موضة رجالية جديدة عمادها شال نسائي. ماذا تريد أكثر يا "بروميل"(*) آخر زمان!..."

(*) - جورج بروميل (١٧٧٨ - ١٨٤٠)، ارستقراطي إنكليزي لقّب بـ "ملك الموضة". "الناشر".

وأضافت بعد ذلك، وبنبرة مشحونة بالتواطؤ والحنان: "لا يخفى عليك أنك قدوة لمعارفنا من الذكور. يسعون إلى التشبه بك علّهم يرتقون إلى مكانتك في قلوب النساء". وفي تلك اللحظة بالذات وبّخ نفسه على قطيعته مع حنان. ذلك أنها جعلته يشعر وكأنه يعوم داخل حاضنة دافئة، آمنة، ساهرة على سعادته ورفاهيته؛ فكيفما استدار أو اتجه، يلقى حبّ الآخرين له.

في "مقهى النورس" تناولا طعام الغداء. لم يذكر اسم غازي غانم كيما يحظى باهتمام صاحب المقهى. فباستثناء ثلاثة شيوخ جلسوا في ركن ناءٍ لم يكن في المقهى سواهما... لقد تخلفا عن موعد الغداء في الواقع، إذ كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما وصلا إلى المقهى. تداركهما الوقت وهما يسرحان ويمرحان في طرقات البلدة. أوصيا على سمك مشوي، بعد أن أكد لهما صاحب المقهى بأنه من صيد الفجر، واسترخيا على مقعديهما، يتأملان البحر الذي آلت زرقته إلى لون الرماد.

استلطفا المكان في البدء، بالرغم من الإهمال الذي يشكو منه، وبالرغم من لمسة الكآبة التي لفّته. فقد فاضت سعادتهما عليه فأخفت عيوبه. بعد أن فرغا من تناول طعامهما، وفيما كانا ينتظران قهوتهما، راحت حنان تنظر إلى ساعة معصمها بين الفينة والأخرى، فكأنها تخشى أن تدور عقاربها في غفلة عنها. كان نور غسقي حزين قد زحف على القاعة، مضيفاً إلى كرب جوها كرباً. جاءهما النادل بالقهوة فتجرّعاها بتؤدة، صامتين، ساهمي النظرات. عادت حنان بعد ذلك إلى تفقد ساعتها، بتكرار يكشف عن حدّة توترها. أراد أن يمازحها ليخفف عنها: "أراك تستعجلين الرحيل، قال؛ أبهذه السرعة مللت من صحبتي؟". بقيت صامت للحظات ثم قالت، بنبرة لا تخلو من سخرية ومرارة: "إن شئت أن أبقى فلن أبارح"؛ وسارعت بعد ذلك تضيف: "أبقى، ولكن

بشروط". تجهم بالرغم منه؛ فلئن كان يكره كلمة بعينها فهي كلمة "شروط". ولقد شعر وكأن حنان تجري معه صفقة، وكأنها تساوم لشدّ الحبل إلى طرفها. اكفهر وجهه ولابد، إذ عمدت على الفور إلى تبديل لهجتها؛ "شروطي هي شروطك طبعاً"، قالت وهي تسعى إلى الابتسام. لم يعقّب، بل نادى على النادل كيما يأتيه بالحساب.

غادرا المقهى صامتين؛ أوشكا على بلوغ محطة القطار من دون أن ينبسا ببنت شفة. الطريق التي قطعاها صباحاً فرحين، متعانقين، بدت لهما وكأنها نفق طويل موحش. قبضت على يده في لحظة من اللحظات وشدّت عليها؛ لم يحرر يده من يدها، فتشجعت وسألته: "هل ستطيل البقاء هنا؟". "لست أدري، ربما" أجابها على مضض. عادت فسألته: "هل آتي إليك ثانية؟". كانت أبسط قواعد اللياقة تقتضي منه أن يرحّب بعودتها؛ غير أنه اكتفى بأن قال: "كما تشائين". خرجت عندها عن طورها وصاحت في وجهه: "من أي طين جُبلت أنت؟ ألا تعرف الشوق؟ ألا تعرف الحرقة؟ ألست في حاجة إلى أي إنسان آخر؟... في ثانية واحدة تشطب على ماضٍ مشترك وتعتبره وكأنه لم يكن!... في ثانية واحدة تنقلب من حبيب إلى غريب!... ماذا أمثّل بالنسبة إليك، قل لي؟!..." وانفجرت في البكاء.

تمنى لو يحيط بذراعه كتفيها، لو يجد الكلمات التي تهدئ من روعها، لو يضمّها إلى صدره ليجفف دموعها؛ تمنى أن يتصرف كما كان سيتصرف أي شاب محب آخر، غير أن قوة غامضة في داخله كبحت عاطفته ولجمتها.

لو سعت حنان إلى تمالك نفسها، لو مسحت دموعها واستردت ابتسامتها، لربما كانت الأمور ستعود إلى نصابها بينهما. غير أنها استسلمت لحزنها واندفعت تشكو وتعاتب. شعر بضيق شديد عندها، كما هي الحال معه كلما حصر في موقف حرج، أو أخضع لابتزاز عاطفي،

وأحسّ بأنه مهدد في كيانه بالذات. لذلك جاءت نبرته قاسية وكلماته جارحة وهو يدعوها إلى ضبط أعصابها. "لا تجعلي منك ومني محط أنظار المارة، قال؛ أين عزّة نفسك؟" "دست عليها من أجلك، أجابت بحدّة؛ ولكن كيف تفهم ذلك وأنت تجهل معنى الحب!" قالت ذلك وأسرعت في اتجاه المحطة. وبقي هو مسمَّراً في مكانه، يراقبها وهي تبتعد؛ يتابعها بنظراته وهي تحث الخطى ثم تعدو لتغيب وسط حشد المسافرين.

أقفل عائداً إلى فندقه حزين النفس، سوداوي الأفكار. فقد عزّ عليه أن يرى حنان تغادر خائبة، مقهورة، محطّمة الأحلام؛ كما صعب عليه أن يبرر موقفه، بل أن يفهمه حق الفهم. فلماذا ينقلب على نحو مباغت من "حبيب إلى غريب" كما قالت؟ لماذا يلفظ من أحبّه بصدق لدى أول هفوة أو زلّة لسان؟ لماذا لا يعرف التسامح؟ ولماذا، لماذا يجفل إزاء أي مسعى إلى تملكه ولو باسم الحب؟... ربما أصابت حنان القول عندما ادّعت بأنه ليس في حاجة إلى إنسان آخر. فهو لا يبحث عن نصفه المفقود كيما يعرف الاكتمال... إنه لا يبحث عن أي شيء في مطلق الأحوال. يرفض أن يُقيَّد ولا يرغب في أن يُقيِّد. فإن أعجبته امرأة، فإنه لا يسعى إلى فرض ختم ملكيته عليها؛ كما يحرِّم عليها، بالمقابل، أن تحتكره وتعتبره خاصتها. لماذا؟... لو بقي يطرح هذا السؤال على نفسه على مدى أيام وأسابيع لما حظي بجواب قاطع. ربما لأنه نسيج وحده بين البشر... وربما لأنه ينفر مما يعتبره صفقة عاطفية سوقية... وربما لأنه لا يدور إلا في فلك ذاته... وربما لأنه حكم عليه بأن يعيش وحيداً... ولكن مهما تعددت هذه التعليلات والتفسيرات فإنها لن تجدي نفعاً: لن تحول دون القنوط الذي تعاني منه حنان في هذه الساعة العصيبة، ولا دون الوحشة التي تفترسه الآن في هذه البلدة السقيمة.

أيستاء من عبارتها أم يغتبط لها؟ عجز أكرم حداد عن الحسم في هذا السؤال مع أنه ما فتئ يطرحه على نفسه منذ ليلة الأمس. فقد دللت ليلى غانم عن اهتمام أكيد بمصيره عندما صارحته قائلة: "لماذا لا تبحث عن بنت حلال تشاطرك حياتك؟". غير أنها أفهمته أيضاً، في الوقت عينه، أنها لا تتوقع، لاثنينهما، مستقبلاً مشتركاً؛ وإلا لما نصحته بالسعي وراء "بنت الحلال"...

لاريب في أنه لم يتوقع، لحظة واحدة، أن ترقي ليلى غانم في أحضانه؛ بل، ولا أن تسعى إلى إغرائه أو إيقاعه في شباكها. فهي سيدة رصينة، مستقيمة، ووفية لزوجها. مع ذلك، بقي يهدهد أحلاماً برسم المستقبل، يرسم غد قد يكون حافلاً بالمفاجآت... فلماذا يعتبر حياته وقد انتهت؟ ألأنه اجتاز عتبة الستين؟... إنه لا يزال قوي البنية، عاصف الرغبة أحياناً، قادراً على أن يعطي الكثير، ومتعطشاً إلى حب امرأة... حب امرأة بعينها لا حب أي "بنت حلال"... المشكلة أنها متزوجة، ولن يدور في خلدها أن تخلّ بعهد قطعته. فما عساه يفعل؟

إنها تستلطفه دون أدنى ريب؛ ترتاح لصحبته، بل ترغب فيها. ففي حضوره تبتسم، تضحك، وما هو أهم من ذلك، تتكلم. ما عادت

تدع زوجها يحتكر الحديث؛ غدت تدلي برأيها، تروي ذكرياتها مع ابنتها، تعلّق على ما يطرأ على حياة الفندق من أحداث، تستفسر عن أحوال النزلاء. كل يوم، قبيل موعد العشاء، بات يلتقي بها. فقد اعتاد على أن يغادر "مقهى السندباد" قرابة السابعة كيما يجالسها في بهو الفندق. لا ينفرد بها طبعاً؛ ذلك أنها لا تخطو خطوة واحدة من دون غازي؛ وغازي، ما أن يستقر في مكان، حتى يلمّ جمعاً من حوله. تبقى الجلسة، مع ذلك، ممتعة. وغالباً ما يصار إلى إعادة عقدها بعد العشاء فينضم إليها حاكم رغم احتجاج الست أمينة وتذمّرها. فحضوره يطيل السهر في رأيها، وإطالة السهر تعني ارتفاع فاتورة الكهرباء... مسكينة أمينة؛ إنها محصّنة ضد الفرح. لم يشاهدها مرّة واحدة وهي تبتسم. الحياة، بالنسبة إليها، مهام وواجبات. إنهم، معشر النزلاء، يدينون لها بالكثير. فلولا عملها الدؤوب، لولا سهرها على نظافة الفندق، من المطبخ، إلى المطعم، إلى الصالون، إلى غرف النوم، لما كان "بانسيون العائلات" يلمع ويبرق على حد تعبير ليلى غانم. إن ليلى هي التي لفتت انتباهه في الحقيقة إلى هذا الجانب الإيجابي في إقامتهم. "لو اختبرت فنادق أخرى، صارحته يوماً، لقدّرت نعمتك أكثر. فإن لم تسرح فيها الصراصر وقرح، تولى فيها الذباب تنغيص عيشك. وإن لم تتقيأ بسبب الروائح الكريهة المنتشرة فيها، تستفرغ بسبب الطعام الفاسد الذي يقدم لك". لقد اختبر، في الواقع، فنادق أخرى من دون أن يتقزز أو يتقيأ؛ ربما لأنه ما كان يعير النظافة بالاً قبل أن تهديه ليلى إلى فضائلها.

ليلى!... مهما لف ودار يعود إليها. ولكن ما حيلته؟ ألأن شعره قد شاب ما عاد قلبه شاباً؟ فهذا القلب يخفق بقوة، بل يقفز في صدره

ويعربد، كلما جاء ذكر اسمها... بالأمس، بعدما ارفضّت جلستهم وصعد إلى غرفته، سيطرت عليه رغبة قوية في مصارحتها بعواطفه. أخذ ورقة وقلماً وحرّر لها رسالة. أول رسالة حب يكتبها في حياته!... وقد سخر من نفسه عندما قرأ ما كتب. فبدلاً من أن يبث لها عواطفه، بدلاً من أن يمتدح فضائلها ويتغنّى بجمالها، كما يفعل العشاق عادة، لم يكفّ، من أول الرسالة إلى آخرها، عن وصف اضطرابه وبلبلته، وعن الإعراب عن دهشته إزاء إعصار الحب الذي أُخذ في دوامته. ثمة عبارة كرّرها أكثر من مرّة: "جاءني الحب متأخراً ومن غير أن أستعد له". وقد تساءل، تارة، إن كان خليقاً بمواجهة تحدياته وتبعياته، وأقسم، طوراً، بأنه لن يفوّت موعده الأول والأخير معه.

كاد أن يمزّق الرسالة بعد قراءتها؛ ذلك أنها فشلت، كلياً، في التعبير عن مشاعره تجاه ليلى. فقد تحدث فيها عن نفسه، لا عنها هي! أتلك هي حال العاشقين؟!.. لم يختبر العشق، مع الأسف، كيما يجيب عن هذا السؤال. كما أنه لم يختبر الكتابة العاطفية كيما يبرع في تحرير رسالة حب. فحتى تاريخ الأمس كان نشاطه التحريري يقتصر على لوائح التعرفة، ومحاضر الضبط، وجداول المحاسبة...

لم يمزّق الرسالة في النهاية، بل احتفظ بها في درج صغير. فهي تصلح لأن تكون شبه مسودّة عندما سيعاود الكرّة. ذلك أنه قد صمم على معاودة المحاولة، مرتين، وثلاثاً، ومائة إذا ما اقتضى الأمر، ريثما ينجح في تحرير رسالة حب يرضى عنها تماماً. قد لا يبعث بها إلى ليلى؛ قد لا يشير إليها أمامها؛ قد يأسرها، بدورها، داخل درج صغير. غير أنه يكون قد حرّرها؛ أفلن تكون له حصّة، ولو صغيرة جداً، من وليمة الحب التي يتعاطى معها، بعضهم، حتى التخمة؟

محطته في "بانسيون العائلات" لم تكن ضرورية؛ لم تكن ملحّة بالأحرى. فقد كان بوسعه أن يرجئ زيارته للبلدة إلى موعد آخر، إلى الموعد المحدد سلفاً في مفكرته. غير أنه شاء أن يعرّج عليها، ولو على حساب تعديل برنامج جولته. لم يدرك أن دافعه الحقيقي هو ملاقاة سلمى فخري إلا عندما التقاها في بهو الفندق! انه مستعد للقسم على ذلك!... كان قد أوهم نفسه بأنه ما جاء إلا إكراماً لأخصائي معروف كان قد أوصاه على بعض النماذج الطبية المجانية؛ فكأنه استحال على ذلك الأخصائي أن ينتظر بضعة أيام... المهم أنه خرق عاداته، وعلى أكثر من صعيد واحد؛ فقد سبّق قدومه أسبوعاً، وبات ليلة واحدة في الفندق بدلاً من ليلتين، ولم يتناول عشاءه بمفرده بل بصحبة سلمى... إحساس بالدوران ينتابه عندما يفكّر بالذي حصل. فقد عصفت به موجة تغيير وهو الإنسان المنتظم، المبرمَج، المخطِّط مسبقاً لأبسط خطوة يقدم عليها.

لن ينكر أن جلسته مع سلمى كانت ممتعة؛ لقد أعادته بالذكرى إلى عهد مراهقته، إلى أيام كان يدعو فيها ابنة عمته سوسن، أو رفيقتها

أحلام، إلى باتيسري "الشموع"، ملتقى العشّاق آنذاك. لم يكن يعشق لا ابنة عمته ولا رفيقتها، غير أنه ما كان يعرف فتيات عداهما. كان يمضي لحظات هنيئة، في مطلق الأحوال؛ يلتهم قطع الكاتو الشهية، ويحتسي القهوة الممزوجة بالحليب، ويفصح عما خططه للمستقبل من مشاريع جريئة أمام التي تشاركه جلسته، أسوسن كانت أم أحلام.

في حضور سلمى لم يتكلم عن مشاريع مستقبلية واعدة، بل عن حاضره الحافل بالنشاط والمهام. فسمعته ممتازة في شركة الأدوية التي يعمل لحسابها؛ فهو لا يكفّ عن توسيع دائرة جولاته وتكثيف زياراته للأطباء الماثلة أسماؤهم على جداوله. في العام المنصرم، حطّم الرقم القياسي في الزيارات فاستحق مكافأة مالية وتنويهاً معنوياً. "إن سمير بحري هو من خيرة العاملين معنا"، قال المدير العام للشركة في حفل ضم عدداً من المسؤولين! وفي حضور سلمى أهمل الحديث عن الأدوية التي توزعها شركته، عن منافعها الجمّة، ونتائجها المذهلة، وتفوقها الأكيد على الأصناف المنافسة لها، ليركّز على وصف الدار التي تملكها مؤخراً. شقة من خمس غرف، جنوبية غربية التوجه، تقع في الدور الثالث من بناية حديثة العهد، كائنة في حي راقٍ. شقة كان قد بحث طويلاً عنها قبل أن يهتدي إليها. ذلك أن الشراء غير الإيجار؛ فتملك دار كالعقد على امرأة، بمعنى أنه يفترض ديمومة العلاقة...

وقد استغل أيضاً حضور سلمى ليطرح سؤالاً هي أول المؤهلين للإجابة عنه: لماذا اختارت أن تقيم في فندق مع أنها مستقرة في هذه البلدة؟...

بصراحة مطلقة شرحت له وضعها وأسباب مجيئها إلى "بانسيون

العائلات". رحّب بالصراحة وغصّ بالأسباب... ذلك أنه كان قد عزا إقامتها في الفندق إلى اعتبارات مغايرة. اضطرارها، مثلاً، إلى إخلاء دارها، نزولاً عند إلحاح مالكها، وعجزها عن العثور على بديل لها بأجر معقول. أو نفورها، مثلاً، من الانفراد ببيت بعد رحيل أهلها، أو بعد ترمّلها... فسلمى ليست بمراهقة؛ لقد بلغت عتبة الثلاثين على الأرجح، وليس من سابع المستحيلات، بالتالي، أن تكون قد تزوجت وترمّلت.

المشكلة أنها قد تزوجت وطلّقت! والحال أن الطلاق، على حد زعم أمه، لا يحصل بسبب أخطاء طرف دون آخر: فكلا الزوجين يتحمل مسؤوليةِ. ربما شذّت سلمى عن القاعدة؛ ربما مثّلت الاستثناء الذي يثبت القاعدة. لو استفسرها عن دوافع الطلاق، لوقف على حقيقة الوضع. ولكن أصول اللياقة حالت دون أن يشبع فضوله؛ ولاسيما أنها المرّة الأولى التي يجالسها فيها مطولاً. عندما سيعود إلى الفندق، أي بعد أسبوع، سوف يستدرجها، وبأسلوب لبق، إلى الحديث عن حياتها الزوجية السابقة، وعن الأسباب التي دفعتها إلى الانفصال عن زوجها. من قبيل الفضول، ليس أكثر؛ فما له ولها في النهاية؟... وهل بقي أعزب حتى هذه السن كيما يخطط لمشاريع مع امرأة مطلّقة؟ لقد كدّ وتعب طول حياته كيما يحصل على الأفضل، وقد عاضده الله ووفّقه في خطاه؛ فهو ما فتئ يترقّى في عمله، حيث ينعم بتقدير رؤسائه وباحترام زملائه؛ كما أنه ما برح يزيد في أمواله، بفضل الادِّخار أولاً، والتوظيفات الذكية ثانياً وخاصة، وما جمعه من مال قد مكّنه من شراء تلك الدار الواسعة والرحبة التي طالما حلم بها. "دار الزوجية" كما يسمّيها لأنه لا ينوي العيش فيها وحيداً. لقد بحث عن رفيقة درب،

غيـر أنه لم يوفّق في مسعـاه. عـقد خطوبتـه قـبل أعـوام على طالبـة جامعية، رزينة ومستقيمة، لكنه تردد في العقد عليها. كانت من أسرة محترمة؛ لها شقيق طبيب وآخر محامٍ، غير أنها كانت عنيدة، متشبثة بآرائها، عـلاوة على كونهـا... غير جذّابة. لم تكن قبيحة، لا؛ كانت عادية، لا تلفت النظر، لا سلباً ولا إيجاباً. إنه لا يسعى وراء الجمال عند المرأة، أصلاً؛ فالمرأة الجميلة مصدر متاعب لا ينضب. لمتطلباتها بداية وليس لها نهـاية! إن رغبتْ في القمر، يجب أن يحضر!... ولكن لئن فسخ خطوبتـه، فلاعتبارات أخرى في الواقع؛ لأنه لم يشعر بالارتياح في عـلاقـتـه مع تلك الفتـاة. والحال أنه يبحث، في المقـام الأول، عن امـرأة يرتاح إليـهـا، كـمـا ارتـاح إلى سلمى مـثـلاً... سلمى التي لن يتـزوجهـا يوماً، لأنه سبق لها أن تزوجت وطلّقت. شيء مؤسف، بل محزن، ولكن تلك هي حال الدنيا.

لماذا اعترض مرهف على قميصه وربطة عنقه؟ طرح صالح هذا السؤال على نفسه وهو يتأمل صورته في مرآة غرفته. فقد تأنى في شرائهما، ودفع ثمنهما غالياً؛ وقد أكد له البائع أن لون ربطة العنق الأحمر ينسجم تماماً مع لون القميص الوردي، كما أفاده بأن الألوان الزاهية، كالأحمر والوردي، هي الرائجة في هذا الموسم. فلماذا استهجن مرهف مقتنياته الجديدة إلى حد الإلحاح على إخفائها؟ فقد أصرّ على إعطائه لفحته كيما يلف بها عنقه ويغيّب القميص وربطة العنق عن الأنظار. "لن ندخل إلى المخزن، قال، إلا إذا كان مظهرك لائقاً"... عجيب أمره! فما هو غير اللائق في هذا المظهر؟

دقق صالح في شكله في المرآة فتفاقمت حيرته؛ هو يخال نفسه ممثلاً أميركياً في القميص الوردي، ومرهف يرى "عورة" في ذلك القميص ويأمره بستره! على كل حال، كان عليه أن ينصاع لرأي صديقه، وقد أخذ به، ولو على مضض، متحسراً على المبلغ الذي أنفقه بلا طائل. فإن لم يتبخطر بذلك القميص عندما يقصد مخزن "سيدتي الجميلة" فمتى يرتديه؟ أعندما يذهب إلى المعهد حيث تنتظره تعليقات زملائه الساخرة؟

تلحف إذن، كما طلب إليه مرهف، واجتاز عتبة مخزن أحلامه،

ومرهف يتقدمه بأقلّ من خطوة. كاد أن يلصق نفسه به خوفاً من أن تستفرد به بائعة وتستفسره عن طلبه. كان الازدحام على أشدّه ساعتئذٍ، فضاق المكان بالأجسام الأنثوية العطرة وبالأصوات الرفيعة والعالية. وفي لحظة من اللحظات شعر بكوع يلكزه في خاصرته، ثم تهادت إلى مسامعه كلمات اعتذار. لم يتبين هوية من لكزته عن غير قصد. ذلك أن رأسه المحنية لم ترتفع، ونظراته المسمّرة على ظهر مرهف لم تحد عن هدفها، وكاد ينتابه دوران لشدة اضطرابه. ولو هدأ الضجيج قليلاً في المخزن لسمع الجميع ضربات قلبه. فقد كان في حالة بلبلة لا توصف، أكثر حدّة بعد من التي كانت تتلبسه في حضور أبيه عندما يستشيط غضبه ويصبّ عليه جام غضبه. راودته الرغبة في مغادرة المخزن قبل أن تخور قواه، غير أنه قاومها بأن أمسك بذيل سترة مرهف. ولم يع أن هذا الأخير كان يوجه إليه كلامه إلا عندما كرر عليه سؤاله: "ما رأيك يا دكتور بهذا المعطف؟" عند ذاك، فقط، انتبه إلى البائعة التي كانت تبتسم، وإلى الصبية التي وقفت، مشدوهة الفاه، تنظر إلى مرهف وإلى المعطف الذي أمسك به. احتار بماذا يعلّق على سؤال صديقه فلاذ بالصمت مكرهاً. تفحّص مرهف نسيج المعطف، طلب من البائعة أن ترتديه، كيما يتبين شكله على نحو أفضل، ثم دعا الصبية الفاغرة الفاه إلى إعطاء رأيها فيه. وقبل أن تنبس ببنت شفة كانت زبونة أخرى تنبري لإصدار حكم على المعطف.

على مدى نصف ساعة أو أكثر مارس مرهف هذه اللعبة؛ تارة يبدي اهتماماً بثوب، وطوراً بعقد أو بشال، وحجّته أنه يبحث، مع صديقه "الطبيب"، عن هدية لصديقة له.

وعلى مدى نصف ساعة أو أكثر تحلّقت زبونات المخزن وبائعات من حولهما، متباريات في إبداء رأيهن، متنافسات على إصدار نصائحهن، متنازعات على اجتذاب اهتمام مرهف، على الظفر بابتسامة منه. ورغم إلحاح هذا الأخير على تلقيبه بـ "الطبيب الشاب"، رغم مسعاه للرفع من مكانته وللإيحاء بأنه ذو شأن ونفوذ، فقد ظلّ وجوده مطموساً في نظر الحسناوات... كن يبتسمن له، بين الحين والآخر، ولكن من قبيل المجاملة؛ باعتباره صديق مرهف. وكانت ابتساماتهن، في مطلق الأحوال، جامدة، رسمية، شكلية. هل حقد عليهن؟ لا؛ ولماذا يحقد؟ لا دخل للحقد فيما يشعر به. لقد خاب أمله بالأحرى. فلطالما توهم أنه سوف يدخل الجنّة مع دخوله إلى ذلك المخزن. فها هو يمضي فيه قرابة ساعة، ووسط رفٍ من الصبايا الحسان، من غير أن يذوق طعم السعادة. فقد أحسّ بنفسه وكأنه غراب حطّ وسط بحيرة بجع!... لذلك تنفس الصعداء عندما همّا بمغادرة "سيدتي الجميلة"، مشيعين بالبائعات وببعض الحسناوات.

ما أن أصبحا في الشارع حتى خرجت من صدره، وعلى نحو تلقائي، صرخة استغاثة؛ "يا ساتر يا رب!" قال بأعلى صوته مثيراً ضحك مرهف، وكذلك انتباه فتاة وقفت تتأمل في واجهة المخزن. لم يتعرّف فيها على راغدة، ابنة صيدلي بلدته، إلا عندما بادرته التحية. كان سيردّ على تحيتها ويمضي لو لم يتعمد مرهف فتح حديث معها. حال اضطرابه دون أن يدرك ما يدور بينهما من حوار مع أنه كان يسمع صوتهما بوضوح. ولو لم يربِّت مرهف على كتفه، في لحظة من اللحظات، لما فطن إلى أن راغدة قد راحت تخصّه بكلامها. سألته: "أين

تقيم بالمناسبة؟... لقد علمت بالتحاقك بمعهد البيطرة، وكان بودي أن أتصل بك... على كل حال سأذهب في إجازة إلى البلد في أواخر الشهر، فإن شئت إرسال شيء ما إلى ذويك لا تتردد". أومأ برأسه موافقاً من غير أن يستفسرها عن مكان إقامتها أو أن يفيدها بمكان إقامته. ودّعتهما عند ذاك ومضت في سبيلها. وكانا قد أصبحا على مسافة أمتار من الفندق عندما بادره مرهف بالقول: "لماذا لا تعاود الاتصال بها؟ إنها فتاة لطيفة، ومعنية بك على ما يبدو لي...". اعتقد، بادئ الأمر، أنه يسخر منه، ولاسيما بعد مغامرته المزرية في مخزن "سيدتي الجميلة". غير أن النظرة التي رمقه بها مرهف كانت تنطق بالاهتمام، لا بالتهكم والسخرية. "وكيف أتصل بها، أجاب؛ هل أملك عنوانها أو رقم هاتفها؟... كل ما أعرفه عنها أنها التحقت بمعهد التمريض... تريد أن تصبح ممرضة، لذلك تركت بلدتنا وجاءت إلى هنا". "حسناً، علّق مرهف؛ أقصد المعهد واسأل عنها".

ولمَ لا؟ ربما كانت هي الأخرى تعاني من الوحدة في هذه المدينة. بل ربما كانت حقاً معنية به، كما ادّعى مرهف. فمرهف خبير بالنساء؛ يفهم عليهن في مثل لمح البصر، من غير سين وجيم... سوف يسعى إلى لقائها؛ ويوم تضرب له موعداً، سيذهب إليه مرتدياً قميصه الوردي وربطة عنقه الحمراء، أشاء مرهف أم أبى! فلمَ لا يبدو كممثل أميركي في نظر بنت البلد؟

كان حاكم قد استعدّ لمواجهة زوجته. تربّع خلف مكتبه، أمسك سبحته في يده، ومكث ينتظر ظهور أمينة وعيناه مسلطتان على العلبة الكبيرة التي احتلت نصف سطح المكتب. مضت دقائق طويلة وهو يترقب العاصفة المقبلة. شاور نفسه أثناءها بإخفاء العلبة وبإرجاء موعد المواجهة إلى يوم آخر، غير أنه عدل. فهو صاحب الفندق، في آخر المطاف، وهو حرّ، بالتالي، بالتصرف بدخله كيفما شاء... وهل أنفقه، أصلاً، على عشيقة، على الموائد الخضراء، أو في الحانات، كيما يستحق عتاباً أو لوماً؟ لقد وظّف ماله؛ أجل، وظّفه في سبيل إدخال التحسينات على فندقه، تمثلاً بسواه من أرباب العمل... وانتشى بهذا التشبيه، أي بكونه ربّ عمل، له شأنه ونفوذه. انتصب في جلسته، رفع رأسه، واعتمد نبرة آمرة وهو يردّ على أمينة التي ما أن دنت منه حتى سارعت تستفسره عن سر تلك العلبة التي حلّت على مكتبه على نحو مباغت: "إنها تحتوي على آلة تسجيل، قال، وقد تسلمتها تواً". "ومن جاء بها؟" سألت أمينة وهي تحملق في العلبة، مشدوهة. "صانع المخزن الذي اشتريتها منه" أجاب حاكم بالنبرة الآمرة عينها. وللحظات، توهم أن الأزمة مرّت بخير وسلام؛ ذلك أن شدة المفاجأة عقدت لسان أمينة وأسكتتها عن الكلام. للحظات فقط... إذ سرعان ما انتابتها حالة من

الغليان. "آلة تسجيل، صرخت في وجهه، وما حاجتنا إليها؟ أتنوي تعلم الغناء؟ الرقص؟... أمراهق أنت حتى ترفعها على كتفك لتسوح بها وتجول؟" فقاطعها حاكم قائلاً: "كفاك هذراً!... لم أبتعها من أجلي، بل من أجل الفندق". "وهل طلبها منك؟"، عقّبت ساخرة. تجاهل ملاحظتها وتابع يقول: "وقت العشاء، سوف نبثّ في المطعم موسيقى هادئة بواسطة هذه الآلة". "أأبكي أم أضحك؟ عقّبت أمينة؛ لا تكفيك موسيقى قرقعة الصحون؟... ولكن قل لي: كيف جاءتك هذه الفكرة العبقرية؟ كيف اهتديت إليها؟". فتمتم حاكم: "السيدة سلمى هي التي قدّمت الاقتراح وأنا تبنيته؛ وقد وعدتْ بتزويدي ببعض الشرائط لأني... لا أعرف شيئاً في مضمار تلك الموسيقى". "اتقِ الله يا رجل، أجابت أمينة متهكمة؛ أنت خبير عظيم بتلك الموسيقى... كيف أسميتها؟... آه، هادئة!". تأفف حاكم ثم قبض بقوة على ذراع زوجته وقال لها بحدّة: "اسمعيني جيداً؟ أتعرفين بصحبة من كان مرهف قبل أيام؟ بصحبة ابنة زهير ماضي؛ بصحبة حفيدة وزير سابق! لقد التقتهما السيدة سلمى صدفة في الطريق، وكانا يتصرفان كحبيبين، كعاشقين". "وما دخل حفيدة الوزير بآلة التسجيل؟" قاطعته قائلة. "يعني، فندقنا يا أمينة، صاح بأعلى صوته، قد يستضيف خيرة الناس... فقد يأتي إلينا مرهف بحفيدة الوزير، أو بشخصية مرموقة أخرى، فلمَ لا نكون على قد المقام؟ لمَ لا نوحي بأن البانسيون إنما هو... فندق كبير وإن على نحو مصغّر؟". فتحت أمينة فاها لتطلق واحداً من سهامها الكلامية الجارحة، غير أنها عدلت فأطبقته. فقد أفحمها حاكم بحججه. عزّ عليها، رغم ذلك، أن تغادر الساحة مهزومة. وبعد بحث شاق عن موضوع للتذمر والمشاكسة قالت: "لتكن الأمور واضحة بيننا: لن أسمح بأن تنفق قرشاً واحداً على

شراء شرائط تسجيل. فما دامت الست سلمى هي صاحبة الاقتراح فلتتفضل وتمدّك بها كما وعدت". وأضافت بعد لحظة: "لئن تكن صمّمت على تناول عشائها مع سمير بحري كلما جاءنا هذا الأخير فمن الطبيعي أن تطالبنا بموسيقى ناعمة". عاتبها حاكم قائلاً: "وما دخلنا بشؤون نزلائنا؟... ثم للشباب حقوقه يا أمينة!". أطلقت ضحكة هازئة قبل أن تعقّب، قائلة: "للشباب حقوقه!... وهل السيد أكرم حدّاد شاب هو الآخر؟ ألم يتقدم بدوره باقتراح؟ ألم يطالبك مثلاً بوضع ورود وشموع في البهو؟". نهرها حاكم بحدّة: "أجننت يا أمينة؟ ماذا تقصدين؟ وعمَّ تتكلمين؟ لماذا سيقترح عليّ أكرم نشر الورود والشموع في الصالون؟". "كي تكون أجواؤه رومانطيقية" أجابت ساخرة. وتابعت، بعد ذلك، تقول: "لو كنت تعير النزلاء قدراً ضئيلاً من الاهتمام الذي تخصّ به الفندق لأدركت فحوى كلامي...". ولكن ظهور مرهف عند أعلى السلم وضع حداً لمناقرتهما. هبط الشاب الدرجات برشاقة ودنا من مكتب حاكم وفي يده مفتاح غرفته النحاسي. كان يرتدي سترة سوداء وقميصاً أزرق ذا خطوط. "إنه حقاً يسبّح الخالق كما تقول أم وليد"، رددت أمينة في سرها. تبادل مرهف معهما عبارات مجاملة وهو يسلّم المفتاح لحاكم؛ حاكم الذي بدا وكأنه يرتدي ثياب بالة بالمقارنة مع أناقة الشاب...

خرج مرهف وبقيت أمينة مع زوجها. جالت في بهو الفندق، تزيح كرسياً في ركن من أركانه، وطاولة صغيرة في آخر؛ أجرت بعد ذلك جولة تفقدية على قاعة المطعم وعادت إلى زوجها من جديد. ولمّا طالت وقفتها أمام مكتبه قال لها، بلهجة متواطئة: "في فمك كلام؛ فهيا، أفرغيه". لكنه شده عندما سمعها تجيب: "لماذا لا تشتري لنفسك بزّة جديدة؟ فهل أصبحت على حافة قبرك كيما تهمل مظهرك إلى هذا الحد؟".

عند عتبة صالون بسّام لتزيين الشعر وقفت سلمى حائرة. أتلغي موعدها؟ ترجئه بالأحرى؟ أم تسلّم رأسها، للحال، ليدي بسّام الماهرتين؟ إن شعرها، في الحقيقة، بأمسّ الحاجة إلى مقصّ المزيّن. وهي، على كل حال، لا تأتي إليه إلا مرّة واحدة كل شهرين، مراعاة لميزانيتها. وقد انقضت هذه المدّة الزمنية بكاملها وتمامها. لكن سمير بحري لن يعود قبل أسبوع، وهي تود أن تستقبله بتسريحة جميلة لا تكون قد تهدّلت بعد... حسمت أمرها بأن تخطّت صالون الكوافير مستأنفة سيرها في اتجاه الفندق. لسوف تلفّق كذبة بيضاء، لتعتذر من بسّام على تخلفها عن الموعد، وتطلب منه أن يحدّد لها موعداً جديداً بعد ستة أيام. وطفرت إلى ذهنها فكرة انتزعت منها ضحكة اغتباط: ماذا لو حضر سمير هذا المساء؟ أفلم يفاجئها بقدومه المباغت قبل يومين؟ فقد يغلب عليه الشوق ويعاود الكرّة... عندها تكون قد ألغت موعدها بلا سبب... أتقفل عائدة إلى الكوافير؟ شاورت نفسها في الأمر، ثقة منها بعواطف سمير بحري تجاهها. فقد غدت على يقين من تعلقه بها مع أنه لم يفصح على الإطلاق عن مشاعره. فهي امرأة! والمرأة تدرك بحدسها حقائق لا تجاهر بنفسها. إنها تبقى امرأة، بالرغم من عشرتها الطويلة لرمزي الحاوي!

فقد عتّم عليها أفقها، ضيّق الدنيا في وجهها، فرض عليها رتابة قاتلة، كاد أن يجعلها تجف من الداخل... وفوق ذلك كله طعنها في عزّة نفسها بتفضيله امرأة أخرى عليها؛ بإقدامه على خيانتها؛ بتسليمه قيادة سيارته... "كفى!"، صاحت زاجرة نفسها؛ فهي لن تعود إلى قصة السيارة ثانية! ذلك أن في العودة إليها انتقاصاً من قيمتها الشخصية... ولو لم تصغر، أصلاً، في نظر ذاتها، من جراء عشرتها الطويلة لرمزي، لما أحاطت مسألة السيارة بتلك الأهمية؛ لما أعطتها الأولوية في سلسلة الأخطاء الجسيمة التي اقترفها رمزي بحقها؛ لما سبّقتها على خيانته لها... صفحة وطوتها في مطلق الأحوال. وهي الآن بصدد فتح واحدة جديدة. مع سمير بحري؟ يا حبذا! "ماذا لو طغى عليه الشوق وعاد الليلة؟"، للمرة الثانية طرحت على نفسها السؤال، يلازمها الشعور عينه بالاغتباط والرضى. أفليس المعروف عن سمير أنه أسير عاداته، لا يخرج عنها ولو هبطت السماء على الأرض؟ وها هو يحيد عنها، ينعتق من إسارها... فماذا جرى له؟ ما الذي جدّ عليه؟... بل ما الذي جرى لها هي؟ وما الذي يحصل معها؟ لقد غدت تواقة إلى الحب، نهمة إلى الحياة؛ راغبة في الإبحار إلى شاطئ التجارب والمغامرات. فمنذ أيام وهي تعايش صورة ما فتئت تلازمها؛ صورة مرهف وحنان ماضي وهما يسيران متعانقين، متواطئين، رائعين، أخّاذين، في شوارع هذه البلدة! لقد أيقظت هذه الصورة في نفسها صبوات كانت حكمت عليها عُشرة رمزي السقيمة بالبيات؛ صبوات دفعت بها إلى المطالبة بنصيبها مما تحمله الأيام من وعود جميلة، وجعلتها تنتشي بأنوثتها بعد أن كادت تنسى وجودها...

وشطح بها خيالها فخاطبت نفسها قائلة: "ولمَ لا؟!". لم لا تسير بدورها في شوارع هذه المدينة بصحبة رجل يعانقها برفق، يحدثها بلهف، ويصغي إليها بانتباه؟ لم لا تغدو، على غرار حنان ماضي، موضوع رغبة؟ مصدر أحلام؟ رمزاً للأنوثة المظفّرة؟!... "لا تبالغي يا سلمى" رددت وكررت؛ "أين أنت من حنان ماضي؟" أجل... حتى أيام خلت كانت تعتبر نفسها في وادٍ، وحنان ماضي، وقريناتها من نجمات المجتمع، في وادٍ آخر. أكثر من ذلك: كانت تعتبرهن ضرباً من مخلوقات أثيرية، متحررات من تبعات الشرط الإنساني ومتعاليات عليه؛ كائنات يحلّقن في عوالم السعادة الشفافة لا يطالهنّ الحزن ولا ينال من عزّتهنّ فشل أو إحباط. ولئن شبك مرهف ذراعه بذراع واحدة منهن، بذراع حنان ماضي على وجه التحديد، فإنه لم ينزع عن رؤوسهن هالة السحر والمجد؛ أبداً. إنه لم ينقص من مرتبتهن، ولكنه رفع من منزلتها هي فوضعها على قدم مساواة معهن. إلى حد ما... فمن خلال ذراع مرهف، مرهف الذي يبيت في الفندق الذي تبيت فيه، ويأكل من الطعام الذي تأكل منه، مرهف الذي يبتسم لها كلما صادفها، بل يتبادل معها عبارات المجاملة؛ من خلال ذراعه التي اشتبكت بذراع حنان ماضي عَبَرت هي، سلمى فخري، إلى عالم بطلات أحلامها. ومع هذا العبور ما عاد الحلم يكفيها. غدت تطمح في أن تصبح بدورها بطلة، معتمدة لا على ذراع مرهف هذه المرّة بل على ذراع سمير بحري. "أملي ألا يغلب عليه الشوق فيفاجئني بقدومه هذه الليلة"، قالت وهي تمرر يدها في شعرها الذي بدا ملمسه جافاً تحت أصابعها. غير أنها سرعان ما أضافت وهي تقاوم رغبتها في الابتسام: "بل يا ليته يأتي، وإن لم تكن تسريحتي على قدّ المقام".

كان زاهي البستاني قد صار عند مدخل المطعم عندما نادى عليه حاكم. "لقد نسيت الجريدة"، قال وهو يلوّح له بـ "برق الجنوب"، الصحيفة المحلية. "معي واحدة" أجاب زاهي، وهو يؤدي الحركة عينها؛ وتردد لحظة قبل أن يضيف: "لقد اشتريتها تواً". هزّ حاكم رأسه، كمن تلقى نبأ بالغ الأهمية، في حين مضى زاهي في سبيله، أي أسرع في اتجاه ركنه المعهود في المطعم. لقد اشترى الصحيفة. أجل! دفع ثمنها، عداً ونقداً! وسوف يعاود الكرة. لن يفعل ذلك يومياً، ولكن بين الحين والآخر. بل في كثير من الأحيان. فلمَ يقتِّر على نفسه أكثر مما ينبغي؟ لمَ يلجأ إلى التسوّل لممارسة هوايته الوحيدة؟ فما ثمن الجريدة، بحق الله؟! أهو باهظ إلى حد الإخلال بميزانيته الشهرية؟...

بيد واثقة فرش "برق الجنوب" على الطاولة، وبحركة رشيقة أخرج قلمه من جيب سترته. وقبل أن ينكبّ على شبكة الكلمات المتقاطعة جال بنظراته في القاعة فألفاها خاوية إلاّ من شخصه. "حسناً، خاطب نفسه قائلاً، لديّ متّسع من الوقت قبل التئام شمل النزلاء... ربما أنجز الشبكة قبل أن تحضر الست أمينة مع حسائها". لكن ما كاد يحرك قلمه فوق المربّعات الصغيرة حتى علا صوت الموسيقى في القاعة. وعاد نفس

اللحن الذي أثار انفعاله بالأمس ينساب، رقيقاً، عذباً، مشحوناً بالذكريات. تجمّد القلم في يده وتزاحمت صور الماضي أمام ناظريه، مغيّبة الصحيفة وشبكة كلماتها المتقاطعة... فعلى هذا اللحن، لحن "الزهور الصغيرة". عاش أجمل لحظات حياته وأغربها في آن معاً. لحظات يخالها أحياناً وقد ضلّت سبيلها عندما انضوت تحت لواء زمنه؛ فهي لا تمت إليه بصلة، بل تبدو وكأنها سرقت من حياة شخص آخر... ففي ليلة صيفية مقمرة جال طويلاً عبر شوارع بلدته المقفرة. كان يسير على غير هدى، مجتازاً دروباً لم تطأها قدماه قبلاً. خلّف وراءه الأحياء الواطئة والوسط التجاري ومنطقة المجمّعات السكنية المهنية، وارتقى إلى هضبة توزّعت فيها فيلاّت ضخمة تسوّرها حدائق واسعة. ألأن القمر كان بدراً تبارت الأزهار في نشر أريجها؟ فقد عبق الجو بعطر الياسمين ورائحة القرنفل الزكية، وشذى الورد الجوري، وعبير زهر العسل... طاف بين الدور، التي لفّ معظمها السكون، ثم توقف عند سور حديقة وقد شدّته أصداء موسيقى راقصة منبعثة من الدار التي تتوسطها. وسرعان ما تهادت إلى مسامعه أصداء ضحكات وتعليقات مرحة، فأدرك أن في البيت حفلاً. كان من المفروض أن يتابع سيره، غير أنه لم يبارح موقعه. فقد كان في العشرين من العمر وكان للحفل الراقص جذب قوي عليه... طال وقوفه عند السور إلى حد التآلف مع المكان. فإذا به، وهو الشاب الخجول، المنطوي على نفسه إلى حدّ الامّحاء، يدنو من باب الحديقة، يفتحه بتؤدة، ويتقدم فوق ممر ضيق، غطته الحصى، باتجاه الدار. لا يزال يرى هذه الدار بوضوح تام، لكأن صورتها قد انطبعت في حيّز من ذاكرته لا يطاله النسيان. دار بيضاء من طابقين انفتحت على الحديقة بشرفة

واسعة مستديرة، كادت شجيرات الياسمين أن تغيّب درابزينها. باب زجاجي عريض احتلّ صدر تلك الشرفة وأتاح له فرصة استكشاف ما كان يجري داخل الدار؛ فرصة المشاركة بالحفل وهو واقف في الحديقة... فمن خلف الزجاج كان يرى شباناً يرقصون، يمرحون، يتخاطفون كؤوس الشراب وأطباق الطعام... تمنى من أعماق حرمانه أن تخرج له فتاة إلى تلك الشرفة، حورية كاللاتي يحلم بهن في ليالي أرقه الطويلة. تمنى وانتظر، عيناه مشدودتان إلى الشرفة، إلى بابها الزجاجي الذي ان تلطف وكشف له عما يدور داخل الدار فقد ظلّ، بالمقابل، محكم الإغلاق...

عندما سمع حفيفاً في الحديقة هلع وارتهب؛ فسوف يقبض عليه في الجرم المشهود! جرم التسلل إلى دار غرباء لا يعرفهم ولا يعرفونه. وقد تُلبّس به تهمة السرقة فيجرجر أمام المحاكم ويزج به في السجون!... كان سيولي هارباً وبسرعة البرق، لو لم يتبين الصبية التي كانت تبتسم له. كانت على مسافة أقدام منه، منتصبة كزنبقة مشيقة في ثوبها الأبيض الرقيق. يذكر أنّه فرك عينيه لحظتها للتأكد من سلامة نظره، ومن أنه في حالة صحو. ولم يصدّق أذنيه عندما ارتفع صوت الصبية يسأله، معاتباً: "لماذا تأخرت؟... كدت أفقد الأمل بمجيئك؟..." لم يجب عن سؤالها؛ فالذهول كان قد عقد لسانه. أولّت صمته على أنه تأبٍ عن الكلام فتابعت تقول، بنبرة مداعبة: "اغضب ما شئت على الرفاق، ولكن لا تغضب عليّ أنا..." وأضافت بعد ذلك: "إن كان يعزّ عليك الالتقاء بهم، نظلّ هنا... الرقص في عتمة الحديقة أجمل في مطلق الأحوال". في تلك اللحظة بالضبط ارتفع ذلك اللحن الشجي. دنت منه، أمسكت يده بيمناها وأسندت يسراها على كتفه وراحا

يرقصان. كانا قد أصبحا في جوار الشرفة التي سيّجتها شجيرات الياسمين عندما همست في أذنه: "الزهور الصغيرة في كل مكان... أمام ناظرينا وفي أذنينا...". لم يدرك مغزى كلامها إلا عندما أوضحت: "اسم هذا اللحن هو "زهور صغيرة"؛ أما عازفه على الساكسوفون فهو سيدني بيشيت". يذكر أنه أومأ برأسه بدون أن ينبس بكلمة، فكأنه خشي أن تفلت منه فيما لو سمعت صوته. ذلك أنها قد خالته شخصاً آخر بدون شك... ويذكر أيضاً أن اللحن كان لا يزال ينساب، ناعماً، عذباً، مجنّحاً، عندما ارتفع صوت ذكوري من داخل الدار، ينادي: "عائدة!". وكحلم ينهار ويتلاشى بمجرد ما أن تنفتح العينان، غابت من نودي عليها باسم "عائدة" في ظلمة الحديقة. رحلت من دون عبارة اعتذار، من دون كلمة وداع، فكأنها كانت وما كانت. فهل راقص حقاً صبيّة حسناء في تلك الليلة السحرية؟ هل منّت عليه السماء، فعلاً، بتلك الهدية الثمينة؟ أم أن أحلامه هي التي حملتها إليه؟ أسئلة ما عاد يهتم بالبحث عن أجوبة عنها مع مرور السنين. فقد عاش لحظات خارقة وكفى، في الحلم، في الواقع، لا يهم! أسئلة ما كانت، أصلاً، لتطرح نفسها عليه لولا المنحى السقيم الذي اتّسمت به حياته. فلو كان كسائر الرجال لما استكثر على نفسه رقصة مع حسناء مجهولة الهوية؛ لما رجّح طابعها المتخيّل على طابعها الواقعي...

بالأمس، عندما سمع هذا اللحن بعد طول سنين، غلب عليه الحنين لزمن كانت أبواب الحلم فيه لا تزال مشرَعة في وجهه. تذكر أنه كان شاباً مرغوباً فيه في ليلة من الليالي، وفطن إلى أنه، بالرغم من ضيق ذات يده، يملك كنزاً لا يقدّر بثمن: تلك الرقصة في حديقة سابحة في ضوء

القمر، على أنغام لحن ينسل إلى أعماق القلب بيسر ماء سُكب فوق أرض عطشى. كيف بلغ هذا اللحن "بانسيون العائلات"؟ وبفعل أي معجزة انتشر في قاعة المطعم؟ نهض وفي نيته الذهاب إلى حاكم للاستفسار منه. على الطاولة أمامه كانت رقعة الكلمات المتقاطعة لا تزال بكراً؛ طوى الصحيفة، مع ذلك، ليحملها إلى صاحبها وأقسم بألا يمارس هوايته، من الآن فصاعداً، إلاّ على جريدة يكون قد دفع ثمنها. فقد خجل من تقتيره الشديد، من بخله بالأحرى، بعد أن ذكّره هذا اللحن الشجي بأنه، في ليلة من الليالي، كان فارس أحلام.

حاول مرهف أن يعاتب نفسه على آخر نزواته، غير أن مسعاه لم يأت بجدوى. فاللامبالاة التي تسلّح بها على نحو لاشعوري حالت دون استجابته لأي ضرب من تأنيب الضمير. لقد أنفق مبلغاً كبيراً من المال لشراء قمصان وربطات عنق لم يكن يحتاجها على الإطلاق؛ حسناً! ومتى كان يقتني ما هو بحاجة ماسة إليه؟... إن وضعه المالي الحالي لا يسمح له بالتفريط بمثل هذا المبلغ؛ هذا صحيح! ولكن هل نعم يوماً ببحبوحة ثابتة؟... لقد بدأ يملّ من إقامته في هذه المدينة الساكنة في مطلق الأحوال. بضعة أيام ويقفل عائداً إلى العاصمة. هنالك يستطيع دوماً أن يتدبّر أمره. فمعارفه فيها كثر وصديقاته فيها عديدات. لن يعاود الاتصال بحنان، غير أنه قد يحيي من جديد علاقته مع ماجدة. ما عاد يذكر من قال له انها قد انفصلت عن زوجها، مع انه لم يمض أكثر من عام على قرانهما... لاريب في أنها لا تزال على حبها له. فتعلقها به كان جنونياً، طاغياً إلى حد استحال عليه تحمّله. لكن ربما خفتت جذوة هذا الحب بفعل طول الهجر؛ ربما تعقلت صاحبته بعد زواجها وطلاقها. أمله أن يلقى ماجدة وقد تحررت من نزعتها الاستبدادية في الحب، وانقلبت من لبؤة شبقة إلى نعجة عطوفة ووديعة... تخيّل ماجدة

في صورة نعجة فغلب عليه الضحك. إن إقامته في هذا البانسيون هي التي أوحت له بهذه الصورة؛ عشرته، بالأحرى، للسيدة ليلى غانم ولتلك التي تصغرها سناً وتدعى سلمى. فهاتان السيدتان هما حقاً على شاكلة النعاج؛ أما ماجدة فستظل تنتمي إلى فئة الكواسر مهما تراكمت خيباتها وإحباطاتها... سوف يسعى، رغم ذلك، إلى بعث ماضيه معها؛ إلى تجديد علاقته بها، وإن لفترة زمنية محددة... يصعب عليه أن يقارن نفسه بمن شارف على الإفلاس فعاد إلى دفاتره القديمة يبحث عن دين له لم يسدد؛ غير أن للظروف أحكامها.

سوف يحنّ إلى حاكم بعد رحيله. فهذا الرجل الطيب يذكّره، إلى حد ما، بأبيه. يعطف عليه، يستفهم عن أحواله، يتفانى في سبيل إرضائه، يبتهج للقائه، يقدّر صحبته، ولا يطالبه بشيء بالمقابل... صبيحة كل يوم يسأل إن كان قد أمضى ليلة هانئة وهو يقدّم له وجبة الإفطار. ومساء كل يوم يستفسره إن كان نهاره قد انقضى على خير ما يرام. لولا الست أمينة لعرض عليه حتماً أن يقيم مجاناً في الفندق!.. عرض كان سيرفضه بكل تأكيد؛ فوضع الرجل لا يسمح له بهذا الضرب من الكرم، ناهيك عن انه لا يتصور نفسه نزيلاً دائماً في "بانسيون العائلات". لماذا ألصقت كلمة "عائلات" باسم هذا الفندق، الله وحده يعلم! فإن نزلاءه قاطبة هم من العزّاب، باستثناء الزوجين غانم... وابتسم إذ تذكر أنه في مدينة صغيرة وأن كلمة "عائلات" لا تزال تضمن حسن سمعة المكان... فعندما كان طفلاً كان يخرج إلى البساتين مع أهله مع حلول فصل الربيع. على ضفاف جدول صغير كان ثمة مقهيان يستقطبان المتنزهين: "منتجع النافورة" و"منتزه العائلات". كان يلحّ على

الدخول إلى الأول، بسبب المراجيح المنتصبة في حديقته، غير أن أمّه كانت تصرّ على الجلوس في الثاني لأنه خاص بـ "العائلات". وكانت الغلبة لأمه دوماً رغم تدخل والده لصالح "منتجع النافورة". كانت الغلبة لها على الدوام في كل مواجهة أو نزاع أو خلاف مع أبيه... لم تكن امرأة مقصِّرة في واجباتها تجاه بيتها وأسرتها؛ غير انها كانت متسلطة، متجبِّرة، مصمّمة على فرض إرادتها في المواضيع كافة... حتى فيما يتعلق منها باختيار الألعاب. فبمناسبة عيد ميلاده الثامن كان قد اصطحب والديه إلى مخزن للألعاب لاختيار هديته. رغب في بندقية تطلق كريات مطّاطية ملوّنة، لكن والدته فضلت عليها آلة كاتبة صغيرة بحجة أنها "هدية مفيدة". وبالرغم من اعتراضه الشديد، وبالرغم من دفاع والده عن البندقية وعن مبدأ "اللعبة" في هدية عيد، فقد عادوا إلى البيت مع الآلة الكاتبة التي بقيت، على كل حال، أسيرة علبتها الكارتونية. فقد أقسم ألا يتعاطى معها، ألا يمس ملامسها، لأنها فرضت عليه قسراً. وقد نقم على والده لأنه تخاذل أمام أمه، حتى في يوم عيد ميلاده. غير أن هذه النقمة تلاشت وامّحت ذات مساء لا ينسى. كان قد جلس، على عادته، على السلم الحجري أمام بيته، ينتظر عودة أبيه. عندما رآه قادماً من بعيد نهض، من دون أن يبارح مكانه. فقد كان والده أوصاه مراراً بألا يهرع إليه، خوفاً من السيارات والحافلات التي تعبر الشارع بكثرة. غير أن أباه في تلك الليلة توقف عن السير وهو لا يزال على مسافة أمتار منه، وأسند سبتيه على الأرض ليومئ له بذراعيه بأن يأتي إليه. أسرع يلبّي الدعوة، متوقعاً حدثاً خارقاً. وبالفعل، رأى والده ينقّب في حمولته ثم يخرج علبة بيضاء عليها

خطوط حمر وخضر. ناوله إياها وهو يبتسم بغبطة: "هذه بندقيتك، قال، إلعب بها ما شئت، ولكن في غياب أمك". يذكر أنه وثب على عنق أبيه، قبّله بحرارة، ثم أعلن وهو يحتضن علبته: "ليس من الضروري أن تطلع النساء على أسرار الرجال". كان لا يزال في الثامنة...

أيسبب الآلة الكاتبة بات ينفر من كل ما هو مفيد وضروري ويرغب فيما هو مترف ومجاني؟... لا يودّ البحث عن إجابة عن هذا السؤال، ولا يودّ، كذلك، طرح المزيد من الأسئلة على نفسه، ولاسيما فيما يتعلق بموقفه من النساء. فقد تجاوز الثلاثين، أي بات في سن يسعى فيه الشباب، عادة، وراء الاستقرار؛ وراء الزواج بتعبير آخر. فما باله ينفر منه، بل يخشاه إلى حد اعتباره خطراً يتهدده، شراً يستهدفه؟ هل يرتهب من تحول الحبيبة إلى زوجة بعد القِران؟... أي إلى أم جديدة تردعه وتلجمه؟... خير له أن يتجاهل مثل هذه الأسئلة؛ أن يطمسها في أعماق وجدانه، في المناطق المظلمة من أناه. فهو يريد نفسه ابناً باراً، محباً لأبويه، مخلصاً لذكراهما، وإن على حساب تحطيم قلوب النساء اللواتي أحببنه...

في هذه المدينة تلحّ عليه الأسئلة المحرجة؛ خير له أن يغادرها في أقرب فرصة، بعد يومين أو ثلاثة. سوف يحزن حاكم لفراقه، ولكن ما حيلته؟ من وصفه يوماً بشهاب يضيء الأفق، ولكن لثوانٍ ليس إلا؟... وصف لا يخلو من قسوة وإن انطوى على قدر كبير من الحقيقة. فلئن أقرّ له بحضور مشرق فهو يؤكد، كذلك، على سرعة عبوره في الأمكنة؛ وربما في الأفئدة أيضاً...

عندما أصبح في جوار مخزن "سيدتي الجميلة" ألقى صالح نظرة خاطفة على واجهته من دون أن يتوقف، بل من دون أن يتباطأ في سيره. ولو وجد من يرصد هذه النظرة ويحللها لأدرك مدى التحول الذي طرأ على الشاب: فقد كانت تنطق بالثقة، لا بالوجل والارتهاب. ذلك أن صالح، الماضي نحو فندقه، كان عائداً من أول موعد له مع فتاة؛ مع راغدة التي جالسها على مدى ساعة وأكثر في ندوة يؤمّها الطلبة.

كان مرهف على حق عندما أكد له بأن راغدة مهتمة بشخصه. ومع أنه لم يقتنع تماماً في البداية بصحة هذا الرأي، فقد أخذ به حين قصد بالأمس معهد التمريض، الكائن عند تخوم البلدة. ذهب إليه قرابة الخامسة، ووقف على مسافة أمتار من بابه الخارجي، يراقب حركة الدخول والخروج. وسط رتل من الطالبات المغادرات لمح راغدة. وقبل أن يعلن لها عن وجوده بحركة أو إشارة، راحت تلوِّح له بيدها وقد أضاءت وجهها ابتسامة عريضة. وفي مثل لمح البصر أصبحت في جواره. وقبل أن تلقى عليه التحية سألته بلهفة وفضول: "ماذا تفعل هنا؟" ارتبك، وخشي أن يفتضح أمره. وخرجت كلماته متلعثمة وهو يجيب: "أنتظر زميلاً لي... إنه... إنه ينجز معاملة داخل المعهد... سوف يعود بين

لحظة وأخرى...". لا ريب في أن لهجته لم تكن مقنعة؛ فكذبته لم تنطل على راغدة، وإلا لمَ اقترحت عليه أن تنتظر معه عودة ذلك الزميل!... أسقط في يده وتفاقمت بلبلته. لعن لحظتها مرهف والساعة التي تعرّف فيها عليه. فراغدة بنت البلد وقد تفضحه بين أهله وذويه. قد تشيع عنه أنه زير نساء، وأن الدراسة هي آخر همه. أين يضع وجهه عندها؟ وكيف، كيف يواجه غضب أبيه وسخطه؟ لكن راغدة لم تكن تنوي له شراً. فقد تابعت تقول، بعد أن تأملته مطولاً: "لمَ لا نلتقي غداً ما دمت مرتبطاً اليوم؟" توهم أنه أساء فهم كلامها للوهلة الأولى. ولم يدرك أنها تدعوه إلى لقاء إلا عندما عمدت إلى تحديد مكانه: الندوة الكائنة غير بعيد عن المعهد. وهكذا كان.

ذهب إلى موعده في اليوم التالي وهو يرتدي قميصه الوردي؛ تردد قبل أن يضع ربطة عنقه الحمراء، إذ ليس من عادة الطلبة اللجوء إلى هذا الضرب من التأنق. غير أنه حسم المسألة إيجاباً لجملة من الاعتبارات. فهو، أولاً، لم يدفع غالياً ثمن ربطة العنق تلك كيما يرميها في درج؛ وهو، ثانياً، حريص على الاستجابة لدعوة راغدة وهو في أبهى مظهر. وقد أحسن الصنع. فقد أثنت راغدة، أكثر من مرّة، على هندامه، بل طلبت منه أن يرشدها إلى المخزن الذي ابتاع منه القميص وربطة العنق كي تشتري هدية لشقيقها. وقد وعد بأن يصطحبها إليه في اليوم الذي تشاء. ذلك أنهما سيلتقيان من جديد. فقد أفهمته أنها تعاني من الوحدة، بعيداً عن ذويها، وأفهمها، بدوره، أنه يقاسي من الغربة. فليس لديه صديق واحد في هذه البلدة! استفسرت، عند ذاك، عن مرهف، عن "الشاب الوسيم" الذي كان يرافقه

حين تصادفا للمرة الأولى. ولّما أفادها بأنه واحد من نزلاء فندقه شعر وكأنه قد ارتقى مرتبة في نظرها. "لقد غدوت شخصاً مهماً". قالت وهي تبتسم له بإعجاب. انشرح صدره لهذا الثناء؛ وسعياً وراء المزيد راح يحدثها عن مواضيع دراسته؛ عن الأمراض الأكثر شيوعاً عند الغنم والبقر؛ عن الإجراءات الوقائية التي يتعين اتخاذها منعاً لتفشي الأوبئة عند الماشية؛ عن سبل تحسين تربية الحيوانات الداجنة... أصغت إليه باهتمام لم يسبق أن منحه إياه إنسان؛ ولا حتى أمه، بالرغم من حبّها الشديد. والواقع أن راغدة كانت تفهم ما يقول، بحكم دراستها الطبية، في حين لو أثار مثل هذه المواضيع في حضور أمه لما فقهت منها شيئاً. "نحن نمثل الجيل الجديد" قال، وهو يسير نحو فندقه بخطى واثقة، مشدود القامة، مرفوع الرأس؛ "جيل التغيير" أضاف، منتشياً بكلماته... غير أن حميته كادت تهمد إذ تذكر أن والده قد يحضر بعد أيام لضرورات عمله... وبصورة تلقائية رفع ياقة سترته، وكأنه يود أن يخفي عن الأنظار قميصه الوردي وربطة عنقه الحمراء.

"ما عدت أعرف كيف أتصرف معها. بل ما عدت أتعرّف عليها في بعض الأحيان... لكأن ليلى التي تزوجت وعايشت قد رحلت لتحلّ مكانها امرأة أخرى... تلك هي الحقيقة، صدّقيني... ولولا حيرتي، لولا عجزي عن فهم هذا التحول، بل لولا أسفي وغمّي لما فتحت لكل صدري. فأنا رجل عزيز النفس، ويصعب عليّ بالتالي أن أشتكي...".

كان غازي غانم سيضيف "أمام امرأة"، غير أنه استحسن الاختصار، مراعاة للست أمينة التي كانت تصغي إليه باهتمام، مزمومة الشفتين، سارحة النظرات. وقد أحسن الصنع، والحال، وإلا لكان ألّبها ضده. ذلك أن الست أمينة كانت مشتتة العواطف. فلئن لامت ليلى، ضمنياً، على سلوكها الجديد فإنها كانت، في الوقت عينه، تعتبر أن الرجل المنتحب في حضورها قد استأهل ما يحصل له! وما يحصل له غير ما يدركه في الواقع... فممَ اشتكى قصير النظر ذاك؟ مِنْ رفض زوجته المكرر مرافقته في زياراته! فيا لها من مصيبة... أفلم ينتبه الأحمق إلى تحويم أكرم حداد من حولها؟ إلى البريق في عينيها عندما تنظر إليه؟ إلى الابتسامة التي يشعّ بها وجهها عندما يحدثها؟ لقد مرّ الغبي مرور الكرام على مغازلتها الصامتة ولم يستوقفه إلاّ امتناعها المفاجئ عن مرافقته في

زياراته السقيمة والروتينية... لم تشفق لحاله؛ فهي لم تحمله يوماً في قلبها. غير أنها رأت من واجبها أن تصغي إليه باهتمام وأن تسدي إليه النصائح. فعقد الزواج يبقى مقدساً في نظرها، كما يبقى السعي إلى صيانته فرضاً واجباً؛ وهي تحترم الزوج في غازي غانم وان كانت لا تحترم فيه الرجل... لا تستسيغه بالأحرى. بقيت إذن تصغي إلى شكواه إلى أن أفرغ كل ما في جعبته؛ عندئذ قالت: "إن أوضاعك المادية جيدة على ما أعتقد وإلا لما توقفت عن العمل وأنت لا تزال دون الستين...". "انقطعت عن العمل من أجل ليلى، كيما أهتم بها بعد زواج ابنتنا"، ردّ على الفور. "وهل ليلى مقعدة؟، أجابته بنبرة هازئة؛ هل طعنت في السن وما عادت قادرة على تدبر أمورها؟ إنها امرأة في عزّ شبابها يا رجل! امرأة تحتاج إلى من يشعرها بأهميتها!... قل لي: متى قدّمت لها هدية جميلة آخر مرة؟". وإزاء الصمت الذي لزمه غازي تابعت تقول: "يقيني أنك لم تأت لها بباقة زهور منذ عقود... ويقيني أيضاً أنك لم تدعها يوماً إلى حفل ساهر، إلى مطعم فاخر". فقاطعها قائلاً: "آخذها حيثما أذهب... وهي التي باتت تتأبى عن الخروج!". "طبعاً!، ردّت أمينة؛ فقد ملّت من المشاريع عينها. فإلى أين كنت ذاهباً قبل أن تلتقيني في البهو ونعقد هذه الجلسة؟". "إلى دار شقيقتي الكبرى"، أجاب. "وغداً تذهب إلى دار شقيقتك الصغرى، عقّبت؛ وبعد غد إلى دار عمتك، ومن ثم إلى دار خالتك..." "ولمَ لا، قال محتداً؛ فأنا حريص على علاقاتي العائلية. وعائلتي غدت عائلتها هي أيضاً". تنهدت أمينة ونظرت إلى غازي غانم وكأنه طفل يستحيل عليه فهم درس معلمه، طفل يحتاج إلى من يعيد عليه الشرح عينه مرتين وثلاثاً. لذلك تسلّحت بالصبر وقالت: "زوجتك،

بالحرف الواحد. تملّ. والنساء، عندما يسأمن، يرتكبن حماقات". "يعني يخرجن عن طاعة أزواجهن؟"، أجاب. كادت أن تنهره على عدم فهمه، لكنها اكتفت بأن هزّت برأسها وهي تتابع: "يخرجن عن الطاعة بصورة من الصور، إن شئت... المهم هو تدارك التطورات السلبية قبل حصولها... وفيما يتعلق بليلى فهي تحتاج منك قبل كل شيء إلى نظرة جديدة إليها... نظرة تعيدها إلى عهد خطوبتكما مثلاً... اسألها ماذا ترغب؛ إلى أين تود أن تذهب؛ اقترح عليها رحلة استجمام؛ أخرج معها إلى السينما... لست أدري أنا! فأنت الرجل، في النهاية، ويفترض فيك أنت أن تدرك كيف السبيل إلى إرضائها...". "لو كنت أدرك لما لجأت إليك" قال بصوت مكسور حزّ في نفسها. ثم أضاف، بعد لحظة صمت: "الرجال، أيضاً، بحاجة إلى من يهتم بهم ويعطف عليهم". وافقته بحركة من رأسها وامتنعت عن التعليق؛ فقد أصاب القول هذه المرّة.

نهض غازي غانم حينذاك واستأذنها بالانصراف. "سوف تستعوقني شقيقتي، قال، إذا ما أطلت الجلوس". وبعد أن خطا بضع خطوات في اتجاه باب الفندق عاد أدراجه ليقول لها، بصوت خفيض: "سوف أحاول... سوف آخذ بنصائحك..."

كان عليها أن تنهض هي الأخرى وتذهب إلى المطبخ لتشرف على إعداد العشاء. غير أنها مكثت جالسة في البهو تنظر إلى حاكم، المنكبّ فوق مكتبه، وفي يده قلم يحركه فوق سجل كبير. كانت صلعته تلمع على ضوء المصباح المتدلي فوق رأسه، وكان حاجباه الكثيفان يؤطران بالسواد نظارته الطبية المنزلقة قليلاً فوق أنفه. "لو لم يصلع لما كان شاب شعره" قالت بينها وبين نفسها وهي تتأمله بشيء من الحنان.

تنهدت وغادرت مقعدها، قادتها قدماها على نحو تلقائي في اتجاه المطبخ؛ ولكن، قبل أن تبلغ عتبته، عرّجت يميناً، إلى حيث كان يجلس حاكم. وعندما انتصبت أمامه رفع رأسه عن سجله، متوقعاً أن تبادره الكلام. ولما طال صمتها استفسرها عن أسباب وقوفها. "وهل ينبغي مني أن أبرر ذهابي وإيابي في هذا الفندق؟"، سألت بنبرة زاجرة؛ غير أنها سرعان ما أضافت، وهي تتحاشى النظر إليه: "في نيتي أن أعد دجاجاً مع الأرز للعشاء، فهل يناسبك؟". "ولمَ لا يناسبني؟"، أجابها مشدوهاً. مررت يدها على سطح مكتبه، كأنها تبغي إزالة الغبار عنه، ثم عادت تقول: "قل لي صراحة إن كنت ترغب في طبق بعينه... فأنا أطبخ كل يوم... ولماذا أسعى إلى إرضاء النزلاء ولا أسعى إلى إرضائك أنت". تفوهت بهذه الكلمات واستدارت على الفور على نفسها لتسرع في اتجاه المطبخ. تابعها حاكم بنظراته، وقد احتار في تفسير لطفها المباغت ومودتها غير المألوفة. ولم يجد في النهاية ما يقوله، تعليقاً على هذا التحول في سلوك أمينة، سوى العبارة التالية: "كان عليّ أن أرتدي بزة منذ زمن".

للمرة الثالثة أعاد أكرم حداد قراءة الرسالة التي دبّجها بعد طول جهد؛ وللمرة الثالثة صفّق ضمنياً للعبارات البليغة التي ابتدعها قلمه وللصور البيانية المعبِّرة التي أسعفه بها خياله. صدق من قال إن الحب يصنع المعجزات! فلولا هيامه بليلى، لولا عواطفه الجارفة تجاهها، لما نجح في إنجاز تلك التحفة!... ولكن ما الفائدة من تدبيج رسالة غرامية تلهب المشاعر وتذيب القلوب ما دامت ملهمتها لن تطلع عليها؟

لاريب في أن مشروعه التحريري كان ضرباً من التحدي في البداية. أراد أن يمتحن نفسه؛ أن يثبت قدرته على التعبير عن أحاسيسه وأحلامه وصبواته بأسلوب جميل ولغة شعرية. أي أن يختبر نوعاً جديداً من الكتابة وهو الذي لم يمارسها، على مدى عقود، إلا لضرورات عمله الوظيفي. وبعد أن نهض بهذا التحدي، وعلى نحو فاق توقعه، بدأ يشاور نفسه باطلاع ليلى على رسالته، دخل في صراع مع نفسه، بالأحرى. فبقدر ما كان يرغب في الإفصاح عن عواطفه، في المجاهرة بحبه، كان يخشى عواقب ما كان يعتبره، ضمناً، مجازفة وتهوراً. فماذا لو وقعت الرسالة بين يدي غازي غانم؟ أفلن يجعل السماء تهبط فوق رأس زوجته المسكينة؟ وماذا لو بادرت ليلى إلى إطلاع زوجها عليها؟

أفلن يسعى هذا الأخير إلى الانتقام منه؟ قد يمرِّغ سمعته في الوحل؛ بل قد ينهال عليه ضرباً؛ هذا إن لم يشهر مسدساً في وجهه في لحظة غضب!... وهل يحق له، أصلاً، أن يتدخل في حياة الزوجين ويتسبب في إفساد علاقتهما؟ لقد ائتمنه غازي غانم على زوجته عندما كان يدعوه لاصطحابهما في نزهة أو للانضمام إلى جلستهما في الفندق. وما عاد ينقضي يوم واحد، في الواقع، من دون أن يلتئم شملهم، إما في قاعة الطعام وإما في البهو، حيث تنعقد السهرات ليلاً. فهل يكافئ الرجل على ثقته به برسالة حب موجهة إلى زوجته؟

متى راجت عادة السهرات تلك؟ بل متى توطدت علاقته مع الزوجين غانم؟ يخيّل إليه أن زمناً طويلاً قد انقضى على ذلك؛ والحال أن التحول الذي طرأ على حياته وعلى حياة الفندق حديث العهد تماماً. بدأ قبل أسبوعين أو ربما ثلاثة... بعد مجيء مرهف في مطلق الأحوال. لا يزال يذكر، في أدق تفاصيلها، ليلة دخول الشاب للمرة الأولى إلى قاعة المطعم. كانت أجواء صقيعية تسود المكان، وما من صوت كان يُسمع فيه باستثناء صوت غازي غانم طبعاً. ولئن اختار مرهف أن يجلس قبالته ليلتها، فكي يكون في جوار النافذة على الأرجح، أي كي يتمكن من النظر إلى الخارج ويهرب من إطار خانق. ما من حوار كان ينعقد بين الطاولات، ولا حتى بين شاغري الطاولة الواحدة. كان النزلاء يتناولون طعامهم بصمت، وعلى جناح السرعة، ثم ينسحبون إلى غرفهم. بعكس ما يحصل اليوم... فحتى صوت الموسيقى، التي بات حاكم يحرص على بثِّها ليلياً، ما عاد يغطّي الطنين الدائم لأحاديث النزلاء ومداولاتهم. وحتى تعنيف أمينة، المتذمرة من هدر التيار الكهربائي والتبذير في إنفاقه، ما عاد يحول دون طول السهر...

مرهف كان سبب التحول، فلمَ لا يستشيره بصدد الرسالة؟ ما أن طفرت هذه الفكرة إلى ذهنه حتى وبّخ نفسه عليها. فهل فقد صوابه كيما يفضخ أمر حبه أمام الغير؟ كيما يسيء إلى سمعة سيدة هي مثال للعفّة؟ ما عساه، إذن، يفعل بتلك الرسالة؟ عندما انكب على كتابتها كان ينوي الاحتفاظ بها لنفسه؛ فكل ما كان يطمح إليه هو إثبات قدرته على استخدام لغة الحب؛ هو الانضواء، ولو شكلاً، تحت لواء محرري الرسائل الغرامية. ولكن ما أن أنجزها حتى ألحّت عليه الرغبة في إطلاع سواه عليها. في حمل ليلى، في المقام الأول، على قراءتها. فرسالة الحب ضرب من الوصال؛ وكيف يكون وصال من طرف واحد؟ من دون علم الحبيب؟

احتسى أكرم حداد فنجاني قهوة في بهو الفندق ودخّن عدداً من السجائر وهو يناقش مسألة الرسالة في ذهنه. كانت الساعة قد قاربت من الثانية عشرة وكان عليه بالتالي أن يبرمج لمشروع غدائه. اقترح مراراً على الست أمينة تأمين وجبة الظهر أيضاً، غير أنها رفضت لأنها لا تملك لا القوة ولا الوقت لتحميل نفسها مسؤوليات جديدة. يحتار، في الواقع، ماذا يأكل كل ظهر. ولو كانت فضيلة ربّات البيوت الوحيدة إعداد طبق جديد لكل نهار يخلقه الله لاستحققن الاحترام والتقدير! زاهي البستاني يأكل الصندويش ظهراً، والسيدة سلمى فخري تكتفي بقدر من الفاكهة على حد زعمها. جرّب الصندويش، فشعر بالغثيان في اليوم الثالث. وحاول أن يطبّق ريجيم الفاكهة ليوم واحد فانتابه دوران شديد قبل غروب الشمس... الطالب الريفي، المدعو صالح، يقتات، عادة، بما يرسله له ذووه ويذهب، أحياناً، إلى بائع للكباب ينصب مناقل

شوائه على الرصيف العام. أراد أن يحذو حذو الطالب فكاد يتسمم... لو تزوج لما اضطر أن يسأل نفسه مع كل شروق شمس: ماذا سآكل ظهراً؟ وأين سآكل؟ لو تزوج لما كان يخبئ الآن في جيب سترته رسالة حب تليق، في الحقيقة، بمشاعر مراهق. لو تزوج...

كان عند هذا الحد من تفكيره عندما بان الزوجان غانم عند أعلى السلّم المنتصب في صدر البهو. هبطا درجاته وهما يتحاوران بحمية واضحة، لكأنهما يتشاوران في مسألة بالغة الأهمية. لم يكونا متوترين. بالعكس، كانت أساريرهما منفرجة، بل كانت ليلى تبتسم وهي تتكلم. حتى أنها شبكت ذراعها بذراع زوجها الذي رفع رأسه باعتزاز وجال بناظريه على القاعة، بحثاً عن شاهد على دليل المودّة هذا. وقع على أكرم، القابع في زاويته، والمكترب مما يرى... حيّاه بصوته الجهوري وبادره بالكلام وهو على مسافة أمتار منه: "نحن ذاهبان إلى مطعم "قصر الأمراء"، قال مفاخراً؛ ومع أن أكرم ابن البلدة، أي مطّلع بطبيعة الحال على جديدها وقديمها، على مظاهر جاهها ومواطن فقرها، فقد حرص غازي على أن يضيف موضحاً: "إنه مطعم أنيق وحديث، وباهظ الأسعار أيضاً... إنه لأكابر الناس لا للدراويش من أمثالنا... ولكن كل شيء يرخص في سبيل الست ليلى... فاليوم تصادف ذكرى زواجنا وسوف نحتفل بها في مكان لائق". كاد أكرم ألا يصدّق أذنيه؛ وكاد، بعد لحظة، ألا يصدّق عينيه أيضاً. فقد مالت ليلى على زوجها وهي تبتسم له بإغراء! فما الذي يحصل بحق الله؟ وأي ريح جنونية غدت تعربد في هذا الفندق؟ وكأن غراميات الزوجين غانم لا تكفي، فإذا بحاكم يتدخل بدوره ليضفي لمسته هو الآخر على مشهد التحولات. فقد ظهر عند عتبة البهو، آتياً من الخارج، في بزّة رصاصية جديدة أضفت

عليه سيماء البيكاوات. بدا الرجل وكأنه صغر عشر سنوات وخاس عشرة كيلوغرامات! نتوء بطنه اختفى تحت سترة فصّلت بمهارة، واحديداب ظهره زال أو كاد بفعل مشيته المنتصبة، حتى صلعته شملها التغيير؛ ربما لأنها ما عادت تستقطب النظر ورأس حاكم مرفوعة... حيّا حاكم ليلى وزوجها مصافحاً إياهما باليد وحثّ الخطى في اتجاه مكتبه. وقبل أن يستقر خلفه كان غازي غانم يلحق به، ينحني باتجاهه قليلاً ويحدثه في أمر له أهميته ولابد. ذلك أن حاكم كان ينصت له بإمعان ويهز رأسه بين الحين والآخر. بدت جلسة المساررة بين الرجلين وكأنها ستطول، مع أن ليلى، الواقفة في وسط البهو، كانت تنتظر. ومن دون تفكير، وبلا سابق تصميم، نهض أكرم حداد من جلسته واقترب من ليلى. وما أن أصبح على خطوتين منها حتى دسّ يده في جيب سترته وأخرج الرسالة. وكمن يقبض سهواً على قطعة جمر فيسعى إلى التخلص منها بأية وسيلة، أمسك بيد ليلى وأغلق أصابعها على الورقة المطوية. نظرت إليه مشدوهة، عاجزة عن تفسير تصرف خرج عن كل مألوف. قال بصوت متهدج، فيما حبّات العرق تكسو جبهته: "هذه رسالة... رسالة مني لك... قد تعجبك... لست أدري... أملي أن تنال رضاك... خذيها مني: أرجوك!...". وإزاء الصمت الذي لزمته ليلى، صمت كان بليغاً في استنكاره واستهجانه، أضاف، يلازمه شعور من داس في الوحل فغارت فيه قدماه أكثر فأكثر: "بادرتي صادرة عن نيّة طيبة، شريفة... أنا لا أكنّ لك إلا الود والاحترام وإلا لما حررت هذه الرسالة...". وبنبرة غلبت عليها الحيرة سألته عند ذاك: "وماذا أفعل بها؟... أعني بالرسالة؟". "مزّقيها، أجاب على الفور وهو يختطف النظر إلى غازي العائد في اتجاههما، ولكن اقرئيها قبلاً".

- قلت "حفلاً؟"... أهذا ما قلت، فعلاً، أم أن سمعي قد خانني؟

- لا، لم يخنك سمعك، أجاب حاكم متأففاً ومتفادياً النظر إلى أمينة المستشيطة غيظاً.

- ولماذا نقيم حفلاً؟ عادت تسأل بلهجة زاجرة. هل نحن ندير ملهى ليلياً؟ مرقصاً؟ مسرحاً؟... وبأي مناسبة نحييه؟ أاحتفالاً بالذكرى الأولى لوضعك طاقم أسنان؟ أم إكراماً لضغطي الذي ارتفع وقواي التي خارت؟...

- بل على شرف مرهف الذي سوف يغادرنا قريباً، ردّ حاكم بنبرة أسيانة.

- مرهف سيرحل؟... ولماذا؟... هل أساء أحد إليه؟ هل تسبب نزيل من النزلاء في إزعاجه؟

- ما هذا الهراء؟ من سيتعرض له وهو عزيز على الجميع؟

- لماذا يغادرنا إذن؟... هل اشتكى لك من الطعام؟... من إهمال ما؟...

- لم يشتك ولم يتذمّر. بالعكس، لقد كان سعيداً بيننا. هذا ما أكّده لي...

- شيء يحيّر! فما دام راضياً عن إقامته، فلماذا لا يمددها؟ اسأله...

- أهذا سؤال يطرح على نزيل؟ وهل الفندق مقر إقامة دائمة، أصلاً؟ فزبائنه يأتون ويرحلون، بعضهم يبيت فيه يومين، وبعضهم الآخر أسبوعين، والجميع يغادر في النهاية.

- ولكن لدينا زبائن دائمون. فلماذا لا يكون مرهف في عدادهم؟

- زبائننا الدائمون من أهل البلدة، ومعظمهم يعمل فيها. وجودهم هنا مبرر، بمعنى آخر.

- حسناً! ابحث له عن عمل...

- أبحث له عن عمل؟!... ولمَ لا أبحث له عن زوجة أيضاً... ماذا دهاك يا أمينة؟ متى كنت تبدين عن مثل هذا التعلق بالنزلاء؟

- ومتى كان يأتينا نزلاء على صورة مرهف؟

هزّ حاكم رأسه ولم يعلّق. فقد أفحمته زوجته بتلك الإجابة. كان بوده، في الواقع، أن يعلمها بأن رحيل مرهف يحزنه هو الآخر، وبأن الشاب سيخلّف فراغاً عظيماً في حياته وفي حياة الفندق؛ وكان بوده، أيضاً، أن يصف لها ذلك الشعور بالأبوة الذي أنماه الشاب في صدره وتلك الرغبة في الحياة التي جدّدها في كيانه. غير أنه آثر الصمت. فمن عادته أن يتفادى إثارة بعض المواضيع في حضور أمينة، لاسيما المتعلّق منها بالآباء والأبناء. فلماذا يتسبب في جرحها وقد عجزت عن أن تنجب له ولداً؟

وعادت أمينة تسأله:

- أتعتقد بأن قراره نهائي؟ أقصد هل من احتمال في أن يعود عنه؟

– وهل قيل لك إني أقرأ في الغيب كيما تطرحي عليّ مثل هذه الأسئلة؟ فما أدراني بما قد يقرر.

– متى صارحك برغبته في الرحيل؟

– هذا الصباح، فيما كنت أقدّم له إفطاره.

– ما الذي قاله على وجه التحديد؟

أطلق حاكم زفرة طويلة قبل أن يجيب:

– ولمَ كل هذه الأسئلة؟... لو لم تكوني زوجتي لخلتك عنصراً من المباحث!... لقد قال لي، يا سيدتي، بالحرف الواحد: سوف أغادر في مطلع الأسبوع القادم.

– ولم يعطِ سبباً... أمر غريب...

– وما وجه الغرابة؟ أكلما جاءنا زبون توجب عليه أن يفصّل لنا دواعي قدومه، ومن ثم، دوافع مغادرته؟... مرهف مجرد نزيل يا أمينة، وهو يتصرّف كالنزلاء قاطبة... إنه نزيل، وإقامته بيننا مؤقتة بالضرورة.

– ولماذا نقيم له حفلاً ما دام مجرد نزيل؟... لماذا نتصرف معه على نحو مميز وقد اختار، هو، أن يتصرف كسائر النزلاء؟... بصراحة لا أجد أي مبرر للاحتفاء به!

غير أنها سرعان ما أضافت:

– الكلمة الأخيرة تبقى لك بصفتك صاحب الفندق. أقم ذلك الحفل طالما أنت راغب فيه. ولكن أعلمني بموعده قبل يومين على الأقل كيما أتدبّر شأن الطعام. فليس من اللائق أن نقدم وجبة العشاء المعتادة في مناسبة استثنائية... بل من المستحسن أن نسأله رأيه فيما يتعلق بالطبق الرئيسي؛ فقد يرغب في أكلة بعينها.

- في نيتي أن أفاجئه بهذا الحفل... أن ننظم الأمور على غرار ما يفعلون في السينما... نعلم جميع نزلائنا بالمأدبة، فيما عدا مرهف، ونطلب منهم أن ينهضوا ليحيّوه ويشربوا نخبه عندما يدخل إلى قاعة المطعم... نفعل كما يفعلون في الأفلام.

أطلقت أمينة ضحكة هازئة قبل أن تقول:

- وتخيّل خيبتنا إن لم يشرّف على العشاء ليلتها!... فهو ليس ملزماً بالحضور...

هز حاكم رأسه موافقاً وأعلن بصوت منكسر:

- أنت على صواب... لابد من إعلامه... غير أني كنت أفضّل صيغة الأفلام السينمائية...

- أنت كالطفل أحياناً!... من أين خرجت بنغمة الأفلام السينمائية؟... من يسمعك يخال له أننا نعيش في قصر يلدز لا في فندق متواضع؛ يتوهم أن نزلاءنا نجوم ومشاهير، لا زاهي الخسيس، وصالح الأخرق، وغازي الثرثار، وسلمى الرعديدة... بالمناسبة، لقد غدت هذه الأخيرة تعير مظهرها بالغ الاهتمام، لباسها على آخر طرز، وشعرها مسرّح بمهارة، ووجهها ممكيج بدقة وتفنن...

- صالح أيضاً غدا يهتم بمظهره، هل انتبهت إلى ذلك؟

- وكيف لا أنتبه مع الألوان الفاقعة التي وقع عليها اختياره؟ إن أحمر ربطة عنقه الصارخ يستقطب النظر من مسافة كيلو متر!... في الحقيقة لم أنتبه لثيابه فقط، بل أيضاً للطفه وإنسانيته. إنه خجول ليس أكثر. فقبل يومين استشرته بصدد مرض أصاب هرّة جارتنا أم وديع؛ تصوّر أنه تطوع لمعالجتها، وإعطائها الأدوية التي تحتاجها. وقد أقسمت

لي أم وديع أنها لم تلتق شاباً أكثر منه طيبة؛ فقد ألحّ عليها بأن تلجأ إليه كلما احتاجت إلى مساعدة أو خدمة! تخيّل...

- في كل إنسان، يا أمينة، إنسان آخر؛ أحياناً تؤاتيه الظروف فيظهر ويتجلى... وإلا بقي أسير قوقعته...

- نحن نتكلم ونتكلم والوقت يمضي... الطعام لا يجهز من تلقاء نفسه، مع الأسف. لذلك يتعين عليّ الذهاب إلى المطبخ... لا تنسَ أن تحدد لي موعد حفلك قبل يومين أو ثلاثة على الأقل؛ فإن كنت أكره شيئاً فهو تحضير المآدب على عجل!... ثم يتعين علينا أن نكون على قدّ المقام، أن نبيّض وجهنا أمام مرهف... وأمام بقية النزلاء.

- "عندما علمتُ من الخادمة أم وليد أن حفلاً سيقام على شرف الأستاذ مرهف، الذي سيغادرنا في القريب العاجل، قلت في نفسي: حبذا لو يتصادف وجود الأستاذ سمير معنا. وهكذا كان... فقد تحدد موعد المأدبة مساء يوم الغد".

تفوهت سلمى فخري بهذه الكلمات وهي تتفادى النظر إلى سمير بحري، الجالس قبالتها. فقد حرص الشاب، وللمرة الثانية، على مشاركتها مائدتها، خارقاً تقليداً كان قد أرساه على مدى أشهر، بل سنوات. فقد كان يلحّ على الانفراد بطاولة، حتى ولو غصّ الفندق بالنزلاء، فإذا به يتخلى طوعاً، ومن دون سبب، عن ركنه المعتاد. مكانه الشاغر كان بمثابة علامة استفهام مطروحة ليس عليه وحده، بل على سائر زبائن البانسيون الدائمين أيضاً... والغريب أنه لم يعر هذا الأمر بالاً مع أنه فُطر، جُبل، تربّى على أن يحسب ألف حساب لنظرة الآخرين إليه ولرأيهم في شخصه.

ببساطة لامتناهية في الواقع حطّ على مائدة السيدة سلمى. كان قد وصل إلى البانسيون متأخراً بعض الشيء لأن جولته على العيادات طالت أكثر مما ينبغي. فقد استدعي آخر طبيب زاره لحالة طارئة واضطر

إلى انتظاره ريثما يعود. كانت السيدة أمينة قد باشرت بتوزيع الحساء عندما اجتاز عتبة قاعة المطعم. أول ما استرعى انتباهه النظرة المتلهفة التي خصّته بها السيدة سلمى. كان في الحقيقة قد بادر إلى التطلع إلى حيث تجلس بمجرد اجتيازه تلك العتبة... ولمّا أتبعت النظرة البليغة بابتسامة مشرقة، تنمّ عن السعادة والغبطة، داس على تحفظاته كافة، وأسرع الخطى في اتجاهها. وما أن احتل مكانه في قبالتها حتى انعقد الحوار بينهما بيسر وطلاقة، فكأنهما صديقان قديمان يجمع بينهما فيض من الذكريات المشتركة.

كانا قد شارفا على الانتهاء من الطعام عندما أفادته بنبأ الحفل المزمع إقامته؛ عندما اعترفت له، بالأحرى، بتعلقها به وبعواطفها تجاهه. أفلم تتمنَّ وجوده في ذلك الحفل؟ أكثر من ذلك: ألم تتجرأ على البوح بهذا التمني؟ فكيف لا ينتشي لسماع هذا الكلام المعسول؟ وكيف لا يقابل الغزل الرقيق بغزل أرقّ منه بعد؟ بلا تردد قال: "لو كان الأستاذ سمير حراً بأوقاته لما تغيب أصلاً عن هذا الفندق ولو ليوم واحد!". وأرفق هذه الكلمات بنظرة ملحّة وبابتسامة غاوية احمرّت لها وجنتا سلمى... واستمرا على هذا المنوال. يتلاطفان، يتمادحان، يتغامزان، يقهقهان، يتصرفان، باختصار، كمراهقين جمعا بين النضارة وقدر من الغباوة. ولشدة انشغالهما واحدهما بالآخر أسقطا من حسابهما العالم المحيط. غفلا عن بقية النزلاء، الذين أخلوا المطعم تباعاً، وكان آخرهم زاهي البستاني الذي خرج متأبطاً صحيفته لينضم إلى واحدة من الحلقات المعقودة في بهو الفندق. لم ينتبها إلى انفرادهما بالمكان إلا عندما انتصبت أمامهما أم وليد، حاملة مكنسة بيد ومجروداً بالأخرى. قالت

وهي تبتسم، كاشفة عن سن ذهبية توسطتها زمرّدة صغيرة: "انتهى وقت الأكل وجاء وقت التنظيف... يا حبذا لو انتقلتما إلى الصالون كيلا أزعجكما في عملي". لبّيا دعوتها على الفور، ولكن بدلاً من الانتقال إلى بهو الفندق، أسوة بسواهما، آثرا الخروج. فالطقس كان دافئاً نسبياً والسماء مقمرة، وسمير في حاجة إلى تحريك ساقيه بعد أن أمضى ساعات طوالاً جالساً خلف المقود... توجها تلقائياً نحو كورنيش البحر، ملتقى العشّاق في مثل هذه الساعة. كانا يسيران جنباً إلى جنب، كصديقين بالأحرى لا كحبيبين. سؤال كان يلحّ على سلمى وهي تتقدم، خطوة بعد خطوة، على رصيف الكورنيش. "هل سيتجرأ على الإمساك بذراعي؟"، في حين كان شاغل سمير الأعظم التركيز على تفادي كل تمادٍ... فقد أدرك وهو يمشي بجوار سلمى، تحت سماء مقمرة وعلى هدير أمواج البحر، أنه قد ذهب إلى أبعد مما ينبغي. فالعشّاق وحدهم يقدمون على مثل هذه النزهات، وليس في نيته، والحال، أن يقع في عشق سلمى. لا لأنه لا يستطيب صحبتها ولا ينشرح في حضورها. بالعكس؛ إنه يشعر بنفسه منجذباً نحوها، وبقوة لم يعهدها. ولو لم تكن قد تزوجت وطلّقت لكان الآن في صدد طلب يدها. أجل، كان سيعقد عليها بلا تردد. كان سيختارها شريكة لحياته ويقيم معها في الدار الواسعة التي تملكها بعد جهد وكفاح. غير أنها امرأة مطلّقة، وهو لم يفكر يوماً، بل ولا لحظة واحدة، باحتمال قرانه من امرأة لها ماضٍ كما يقول... امرأة سبق لها أن اختبرت الحياة مع سواه. ولمّا كان يود سلمى، يعزّها ويحترمها، فقد حرص على لجم رغبته في معانقتها، في إحاطة كتفيها بذراعه، بل مجرد الإمساك بيدها؛ حرص، باختصار، على ألا يتمادى

معها، أي على أن يعاملها وكأنه مجرد صديق ما دام قد حرّم على نفسه أن يكون حبيباً.

طال انتظار سلمى وتفاقم حرج سمير. كانت في كل عبارة، في كل حركة تندّ عنها، تسعى إلى إفهامه بأنها تترقب منه بادرة، تصرفاً يضفي على نزهتهما سحراً خاصاً، يعطيها مذاقاً لا أرهف ولا أروع. وكان هو يدرك مغزى تلك الرسائل المتعاقبة، غير أنه يتأبى، مرغماً، عن الاستجابة لها.

كانا قد تجاوزا "مقهى النورس" ببضعة أمتار عندما لمحا مرهف من بعيد، قادماً من الطرف الآخر للكورنيش. تعرفا عليه للحال، رغم المسافة الفاصلة بينهما؛ ذلك أنه "بدر زمانه" كما قالت سلمى في نفسها، مستوحية القمر الساطع بحدة وعنفوان في القبة السماوية، و"لأن قامته الطويلة تميزه عن سواه" كما ردّد سمير بينه وبين نفسه... وما هي إلا لحظات حتى تقابلا مع الشاب. ألقى عليهما التحية وهو يبتسم بودّ، بل بقدر من التواطؤ. كان حرياً بسلمى أن تتبلبل، أن ترتبك على الأقل؛ فنزهتها الليلية قد تعتبر خروجاً عن السلوك القويم، بل انتهاكاً للتعاليم الفاضلة. فحكم طلاقها لم يصدر بعد؛ وحتى ولو كان قد صدر، فإن انحلال القيد الذي كان يربطها برامز حاوي لا يخوّلها حق التصرف وفق أهوائها. غير أنها لم تعان لا من خجل ولا من وجل. حيّت القادم بحرارة، بل تجرأت على ممازحته، قائلة له بلهجة مداعبة: "كيف تتجول وحيداً في ليلة كهذه؟... أين حنان ماضي؟". أطلق ضحكة قصيرة قبل أن يستفسرها: "وهل تعرفين حنان؟ أهي من صديقاتك؟". نفت على الفور قائلة: "وما الذي يجمع بيننا؟ هي نجمة وأنا نكرة!... إن كنت قد

جئت بذكرها فلأنه سبق أن رأيتها بصحبتك. ألا تذكر؟...". هز مرهف رأسه قبل أن يعلق، بصوته الهادئ: "لاشك أن حنان نجمة، ولكنك لست بالإنسانة النكرة". وأضاف وهو يحدّق في وجه سمير: "إن كل امرأة، في مطلق الأحوال، نجمة في نظر من يهواها". أحسّت سلمى بخدّيها يلتهبان؛ أما سمير فقد أدرك أنه قد حشر في زاوية. فلو تجاهل مغزى كلمات مرهف، لو تظاهر وكأنها لا تعنيه من قريب أو بعيد، لا يكون قد تصرّف بصفاقة فحسب بل يكون، أيضاً، قد شطب نهائياً على علاقته مع سلمى. أما إذا أيّد هذه الكلمات، إذا استقبلها بنظرة ملهفة إلى سلمى، فيكون قد وقع في فخ، يكون قد ذهب إلى أبعد مما يبغي. توهم أنه سوف يختار؛ سوف يتردد قبل أن يختار. غير أن نور القمر، ووجه مرهف البهي، المتألق فتنة وجمالاً - "قد يوقُع اللعين رجلاً في حبه" - قضيا على تحفظاته . انحنى على سلمى، أحاط كتفيها بذراعه، وأعلن بنبرة متحدية: "لقد أصبت الكلام؛ فالسيدة سلمى نجمة في نظري". قالها وتنفس الصعداء، كمن تحرر من عبء جثم على صدره. هل شعر بالرعشة التي اجتاحت جسد سلمى النحيل، بفعل هذا الاعتراف، وأيضاً بفعل لمسة ذراعه لعنقها؟ كان أشد انفعالاً، في الحقيقة، من أن يعير مثل هذه الدقائق بالاً. فقد أحسّ بنشوة الانتصار مع أن ما من شخص عارضه أو تحدّاه، فيما عدا ذاته، وما يكبّل هذه الذات من قيود ومحظورات. فقد انتصر على أفكاره المسبقة، على اعتبارات وتصورات طالما اعتبرها أساسية، جوهرية. وها هو ينطلق نحو سعادته الموعودة، يخطو أول خطوة في اتجاهها بصحبة امرأة مطلّقة. "مطلّقة؟": ما هذا التعبير الغليظ، الجلف؟ سوف يتقدم نحو هدفه المنشود بصحبة المرأة التي يحب، بصحبة أول امرأة أحب...

لم يعلّق مرهف أهمية تذكر على اعتراف سمير؛ فقد اعتبره تحصيل حاصل... فعندما يقدم رجل وامرأة على نزهة ليلية، على شاطئ البحر، وتحت ضوء القمر، فهذا يعني أن الحب يجمع بينهما. شرط ألا يكون الرجل مرهف... أي إنساناً بائس الحظ مثله، يأبى الحب أن يجد الطريق إلى قلبه! وطفرت صورة حنان أمام عينيه، حنان التي أتت سلمى تواً بذكرها. ماذا لو تنزّه معها ليلاً على هذا الكورنيش؟ أكان سيغري الحب، فيحثّه على اقتحام قلبه؟... لكنه سوف يغادر البلدة في القريب العاجل. "سوف أرحل بعد يومين أو ثلاثة" قال من غير سبب، موجهاً كلامه إلى سمير. "علمنا بالخبر وأسفنا له". تنطّعت سلمى تقول. وأضافت، وقد تملكتها جرأة لم تعهدها في نفسها من قبل: "لقد أحبّك الجميع في الفندق، ولاسيما صاحبه... إنه يعدّ لك حفلاً وداعياً". "علمت بذلك" أجاب مرهف وهو يحاول الابتسام. لقد تأثر كثيراً، والحال، عندما باح له حاكم بالموضوع؛ كان الرجل يسعى إلى التأكد من وجوده في الفندق ليلة الخميس، أي بعد الغد؛ وكان، في الوقت عينه، يحاول قدر المستطاع، وعلى نحو مرتبك وملتوٍ، ألا يكشف له عن دوافع استفساره... لم يتحدث عن "حفل وداعي"، بل عن "جلسة ودّية بين النزلاء بمناسبة قرب رحيل الأستاذ مرهف". وتولت سلمى الإفصاح عن أسباب ارتباك الرجل إذ تابعت، موضّحة: "كان بود السيد حاكم أن يفاجئك بالسهرة، غير أنه خشي تغيبك لسبب طارئ... كان ينبغي أن يأتي الحفل على صورة ما يحصل في الأفلام السينمائية؛ هذا ما أكدته لي أم وليد". ضحك مرهف ولم يعلّق. هل شعر سمير بشيء من الغيرة إزاء هذا الاهتمام الشديد بمرهف، سواء من قبل حاكم أو من قبل سلمى؟

فقد انبرى يسأل، وبقدر من الحدّة: "وما علاقة "بانسيون العائلات" ونزلائه بالأفلام السينمائية؟ هل هو فندق بخمسة نجوم؟ هل زبائنه من المشاهير؟... لو حلّ بيننا مخرج لاختار من يصوّر وأي مشهد يلتقط!... أيتوقف عند طاولة صالح وزاهي، فيركّز على الجدار المشقّق الظاهر خلف رأسيهما؟ أم يتابع تحركات الست أمينة وهي توزع حساءها علينا وكأنها قروية تطعم صيصانها؟ أم يخلّد مشهد غازي غانم وهو يرمي فوق أريكة البهو المتداعية، وسط صرير نوابضها التي تصرخ احتجاجاً وألماً؟". هنا أطلقت سلمى ضحكة مرحة ثم قالت، مخاطبة سمير: "أنت تجيد الجمع بين النقد والفكاهة... ولكن لو سمعك حاكم تقدح ببانسيونه العتيد لحرّم عليك اجتياز عتبته". "إنه يحلم بإدارة فندق كبير" قال مرهف وهو ينظر إلى بعيد، وكأنه يخاطب نفسه. ومكث للحظات ساهماً، لا يصغي إلى الحديث الدائر في جواره بين سلمى الذائبة إعجاباً بسمير، وسمير المصمم على التوكيد على روح النقد والنكتة لديه. وفيما كان الشابان يتحاوران دعاهما بحركة من يده إلى لزوم الصمت ليعلن، وهو يبتسم فرحاً: "سوف نقيم لحاكم الحفل الذي يحلم به... حفلاً كالذي شاهده في الأفلام السينمائية!". استودعهما بعد ذلك، وابتعد بخطى مسرعة فيما كانت سلمى تعلن، موضّحة: "ولكن الحفل سيقام من أجلك أنت، لا من أجل حاكم!".

مع أن الساعة تجاوزت التاسعة ومع أن موعد الإفطار شارف على الانتهاء، لم يفلح أكرم حداد في مغادرة الفراش. لم يحاول على نحو جدّي في الحقيقة، بل اكتفى بأن شاور نفسه في الموضوع، عدّة مرّات على التوالي. كان ينهض في السابعة تماماً عندما كان يعمل؛ وقد واظب على هذه القاعدة رغم إحالته على التقاعد. في السابعة والنصف يكون قد اغتسل وحلق ذقنه، وفي الثامنة يغادر غرفته قاصداً قاعة المطعم.

ولئن شذّ عن هذه القاعدة هذا الصباح فلأن ليلة الأمس لم تكن كسائر الليالي!... كانت ليلة تضاهي عشرة أعوام، بل عشرين عاماً من عمره السقيم! فقد حفلت بالتطورات، بالأحداث الخارقة، بالمساررات، بالوعود، بالمفاجآت؛ وقد رافقتها البهجة وانقضت ساعاتها على إيقاع الضحك وأصداء الغناء. حتى زاهي البستاني، المتقوقع أبداً على نفسه، غنّى ورقص؛ وكذلك الطالب الريفي الذي كان بصحبة صبية لازمته حيثما ذهب وأتى وكأنها ظلّه الأمين... أي ريح جنونية هبّت على "بانسيون العائلات" ليلة الأمس؟ أي نسمة ربيعية، بالأحرى، تسلّلت إلى داخل جدرانه الكئيبة فجعلت نزلاءه يحلّقون في أجواء من الفرح والنشوة؟ صاحب العيد كان هو صانعه في الواقع. فقد أراد حاكم أن

يحتفي بمرهف، فإذا بمرهف يجعل من مأدبة عشاء تقليدية حفلة من حفلات العمر. وأطلق أكرم ضحكة إذ تذكر قالب الكاتو الذي أعدته الست أمينة. كانت قد عرضته، منذ العصر، فوق طاولة توسطت المطعم، وتباهت، أمام ليلى غانم، بالتحفة التي أنجزت؛ فقد "رفخ القالب على نحو ممتاز" كما أكدت مراراً، و"بقي متماسكاً لا يتفتت بالرغم من طراوته"، و"فاحت منه رائحة زكية تضافرت الفانيلا مع الكاكاو على صنعها"... وكان كاتو الست أمينة، في الحقيقة، عادياً للغاية؛ نوع من "الكيك" بلا كريما ولا زينة. وقد سارعت المسكينة إلى إخفائه عندما حضرت أطايب العاصمة من تورتات بالفاكهة إلى قوالب كاتو من عدة طوابق، إلى ضروب من البسكويت الملبّس بالشوكولا، إلى أطباق من البقلاوة والحلاوة بالجبن، إلى... كانت هذه الحلويات، المصنوعة بإرهاف وتفنن، تكفي لإشباع طابور عسكر. وما كانت يد واحدة ستمتد إلى كاتو الست أمينة فيما لو بقي معروضاً معها. من جاء بها؟ القادمون من العاصمة طبعاً. أي أصدقاء مرهف. صديقاته في المقام الأول. شابان وست فتيات لبّوا دعوته للحضور مع أنه فاجأهم بها. قدموا في سيارتين ووصلوا إلى الفندق قرابة الثامنة مساء، محملين بالشراب وبالأطايب على أنواعها.

تنهد أكرم بالرغم منه وهو يستذكر رفيقات مرهف. من أين انتقاهن، اللعين؟ كل واحدة منهن أجمل من الأخرى؛ حسن، ولباقة، وأناقة، وثراء فوق ذلك. فكل ما فيهن كان ينطق بالنعمة! وقد تبارين في إرضائه، ولاسيما واحدة من بينهن تدعى حنان. كانت تفترسه بعينيها، وتلتصق به عندما يراقصها. وهل كانت السماء ستهبط على

الأرض لو راقصته، هو أكرم حداد، الجمركي المتقاعد، واحدة منهن على هذا النحو؟ لماذا منّ سبحانه على مرهف بأكثر مما يحتاج، بل وبما لا يحتاج، ويخل عليه هو بامرأة محبّة واحدة؟... فالشاب، كما بدا له، غير راغب في واحدة من صديقاته دون أخرى؛ غير عاشق بتعبير آخر. كان يتسامر مع الجميع، ويراقص الصبايا تباعاً، بما فيهن رفيقة الطالب القروي، ويمازح الست أمينة، ويحرص على مجالسة حاكم بين الفينة والأخرى. كان، في الواقع، أشد اهتماماً بهذا الأخير منه بالحسناوات الهائمات في حبّه. وعندما كان يحدثه أو يصغي إليه بإمعان، كان وجهه يشع طيبة وحناناً؛ وكأن جمال هذا الوجه يغدو إنسانياً...

ليلى هي التي نبهته، في الواقع، إلى هذا التحول في سحنة مرهف. كان قد قام بمناورات عديدة للاقتراب منها، أي من الركن الذي احتلته مع الست أمينة. جلس إلى مقعد يجاور أريكتهما وأولع سيجارة وهو يتظاهر بمتابعة حركة الراقصين على شبه الحلبة التي توسطت بهو الفندق الفسيح. وفيما كان يطرد الدخان من صدره انحنت ليلى قليلاً وهمست قائلة: "أنعم النظر في وجه مرهف، ألا ترى كم غدا وديعاً، حنوناً، ودوداً... لقد غابت عن تقاسيمه كل قسوة وخلت تعابيره من كل تعالٍ... يقيني أن وجهه كان يتّسم بهذا الإشعاع ويتلك البراءة عندما كان لا يزال طفلاً...".

ليلى! يا ليتها أبدت عن مثل هذا الاهتمام في تفحص وجهه ودراسة تحولاته!... إنها لا تزال تعامله باللطف عينه، غير أنها لم تدع له بصيص أمل واحد... لقد أفهمته بصراحة، من غير لفٍ ولا دوران، أن لا مستقبل لهما؛ فهي امرأة متزوجة وحريصة على أن تظلّ وفية لزوجها.

لقد اغتبطت لرسالته؛ هذا ما اعترفت به بلا مواربة ولا خجل. اغتبطت وحزنت لها في الوقت عينه. ذلك أنه يعزّ عليها أن تغدو مصدر ألم له وهو الصديق الذي أعاد إليها ثقتها بنفسها؛ وقد شدّدت على كلمة "صديق" منعاً لكل التباس!

كيف كان حال وجهه عندما صارحته بهذه الحقيقة المرّة؟ من المؤكد أنه لم يكن يشعّ فرحاً على غرار وجه مرهف؛ مع ذلك... مع ذلك انقضت سهرته على خير ما يرام. أمر غريب، ولكن تلك حال الدنيا على ما يبدو.

ما كان يتوقع من سلمى فخري هذا الاهتمام بشخصه. ترى، أيصبح الإنسان غيرياً عندما يكون سعيداً؟ الواقع أن سلمى كانت تحلّق في عالم من الحبور ليلة الأمس. تراقص سمير بحري، تحاوره، تضحك معه؛ وتسامر أيضاً مدعوِّي مرهف، مدعواته على وجه الخصوص. كانت تستوقفهن تباعاً، وتتبادل معهن أطراف الحديث وفي عينيها لهفة وألق. وعندما استفسرها عن أسباب اهتمامها الشديد بهنّ رمقته بنظرة مستغربة قبل أن تجيب: "ألم تتعرف إليهن؟ انهن نجمات المجتمع المخملي!... صورهن لا تغيب عن مجلاّت العاصمة". وأطلقت ضحكة خجولة قبل أن تضيف: "لقد حفظت أسماءهن وقصصهن عن ظهر قلب... أين درسن، وأين أمضين عطلتهنّ الصيفية، وعلى أي كوافور يترددن، وممن تزوجن، وكم مرة طلقن!... لا أكاد أصدق عيني عندما أشاهدهن في بانسيوننا العتيد، يشاركننا سهرتنا وكأنهن ينتمين إلى عالمنا... بصراحة، لقد رفع مرهف من شأننا جميعاً عندما جمعنا بهنّ؛ وفيما يتعلق بي شخصياً، فقد حقق لي حلماً عزيزاً. لن أنسى فضله

أبداً". وهنا فاجأته بسؤالها: "لماذا تعيش وحيداً؟ لماذا لا تتزوج؟". كانت ليلى قد صارحته برفضها قبل دقائق معدودة، لذلك جاءت لهجته متّسمة بشيء من المرارة وهو يجيب: "أتزوج؟ ممن؟ أية امرأة ستقبل برجل تجاوز الستين؟". "ما هذا الكلام، ردّت على الفور؛ أنت لا تزال محافظاً على كامل قواك. وإني لمتأكدة من أن أكثر من واحدة سترحّب بك وبعرض الزواج منك". "واحدة تكفي"، أجاب أكرم بتهكم. فإذا بها تقول: "حسناً! سوف أتولى أنا الموضوع... سوف أعرّفك على زميلة لي في العمل. انها اللطافة بعينها علاوة على كونها ست بيت من الطراز الأول؛ غير أنها تكبرني سناً...". "وهل أنا ابن العشرين؟"، أجاب على الفور؛ "اتفقنا إذن، قالت؛ سوف أجمعك مع زينة في بحر هذا الأسبوع".

ماذا عساه يقول للمدعوة زينة؟ كيف يتصرف معها وهو لم يسبق له أن شاهدها ولو من بعيد؟ كيف سيتدبر أمره إذا ما أعجبته؟ أي إذا شاء أن ينال إعجابها بدوره؟ فهو عديم الخبرة مع النساء، مع اللواتي يصلحن للزواج طبعاً... ولكن، هل كان خبيراً في تحرير الرسائل الغرامية؟ مع ذلك نجح في أن يكتب واحدة تليق بأن تنشر في الكراريس المتخصصة في هذا الموضوع... لقد رفضته ليلى... لم ترفضه بالمطلق، بل بالنظر إلى ظروفها، أي إلى ما تعتبره رباطاً مقدساً. لو كانت حرّة لاستجابت لحبّه... وإذا كانت ليلى سترحّب به، فلماذا تصدّه المدعوة زينة؟ لقد تجاوز الستين، هذا صحيح. ولقد تقاعد عن العمل، هذا صحيح أيضاً. لكنه لا يزال قوي البنية وقادراً على الإنفاق على أسرة. فلماذا لا يجرّب حظه؟ فلعل الحياة تخبئ له أياماً حلوة، سعيدة. لماذا يدفن نفسه قبل الأوان؟ وكما أحبّ ليلى فقد يحب سواها... زاهي البستاني ورقص، فلمَ

لا يعيش أكرم حدّاد تجربة حب متبادل؟ وضحك بالرغم منه وهو يتذكر مشهد زاهي يراقص واحدة من رفيقات مرهف أطول منه بنصف متر. غازي غانم هو الذي تحداه. قال له: أدعوك على الغداء إذا ما تجرأت على طلب واحدة من حسناوات العاصمة إلى الرقص. كان زاهي قد شرب كأسين، أو ربما أكثر؛ فقبل التحدي شرط أن ينهض به على لحن بعينه، لحن يحمل عنواناً غريباً فيه كلمة زهور... واهتمت سلمى بالبحث عن اللحن المطلوب الذي ما بدأت أولى نغماته تنساب حتى توجه زاهي إلى حيث جلست صبية ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً، وانحنى أمامها بلياقة أبناء الذوات. وعندما انتصبت الفتاة بقامتها الطويلة جحظت عينا صالح، الذي كان يتابع باهتمام مغامرة جليسه في قاعة الطعام، وصاح بالرغم منه: "يا ساتر يا رب". عمّ الضحك بين الحضور، غير أن زاهي ما استهاب ولا تردّد. أحاط خصر الفتاة بذراعه وأرجع رأسه إلى الخلف كي لا يغور في صدرها، وراح يراقصها بخفّة ورشاقة. في البداية، كانت تقاسيم وجهه تنمّ عن قدر من التشنج، كمن يبذل جهداً كيلا يقع في خطأ. غير أن أساريره أخذت تنفرج بالتدريج فيما انطلق لسانه يقصّ ويروي. كان حديثه مثيراً ولابد، إذ أن الفتاة كانت تصغي إليه باهتمام. حتى انها، في لحظة من اللحظات، توقفت فجأة عن الرقص لتنعم النظر في وجهه كأنها تريد أن تتأكد من صدق ما يقول. بمَ اجتذبها اللعين؟ وأي قصّة لفقها لها كي يشد انتباهها على ذلك النحو؟ لقد حقق، في مطلق الأحوال، ربحاً مزدوجاً من رهانه مع غازي غانم: كسب دعوة على الغداء وظفر برقصة مع حسناء. ومع أن المعروف عنه أنه بخيل، شحيح، خبير في ضغط النفقات؛ ومع أنه يفترض فيه أن يرحب بدعوة على

الغداء أكثر منها بمراقصة حسناء، ولو على أنغام ذلك اللحن الذي يدور حول الزهور، فيقيني بأن السعادة التي عرفها وهو يؤدي رقصته الفريدة قد طغت على سواها من الاعتبارات. فللحظات بدا وكأنه إنسان آخر؛ ولشدة اغتباطه عندما صفّق له الجميع قصد حاكم الجالس في جوار مرهف وطبع قبلة على صلعته.

صالح كان أشد الحضور انفعالاً. صفّق مطولاً وبحمية وكأن زاهي من أعز أصدقائه... وقد جرفته أجواء العيد السائدة في تيارها، فشاء أن يرقص بدوره بصحبة رفيقته الشابة. نزع سترته، فكّ ربطة عنقه الحمراء، أتبعها بأول أزرار قميصه الوردي، وطلب لحن دبكة. سارعت سلمى تلبي طلبه وانتقت بين شراطئها ما يناسبه. فانطلق يتمايل، يقفز، يدق الأرض بحذائه، يدوِّر منديلاً فوق رأسه، وفتاته تحذو حذوه، أو تحاول، وقد انتابتها نوبة من الضحك.

ومن لم يضحك ليلة الأمس؟ فحتى الست أمينة تخلّت عن وقارها وصرامتها فراخت تصفّق تارة وتدمدم بكلمات أغنية طوراً؛ لم تتذمر لأن السهرة طالت ولأن المصابيح الكهربائية شعّت في كل ركن؛ لم تحتج على الفوضى التي عمّت البهو وقاعة الطعام حيث قامت الدنيا وقعدت؛ لم تنتقد واحدة من الحضور، ولم تبدر عنها ملاحظة سلبية واحدة حول سلوك صديقات مرهف وحول ثيابهن الكاشفة بسخاء عن صدورهن؛ ولم تنهر زوجها ولو مرّة واحدة مع أن تصرفه كان يستحق منها مراجعة. وبالفعل، حام حاكم مطولاً حول صديقات مرهف وأثقل عليهن بالأسئلة. كان يود التأكد من أسماء آبائهن، من علاقة القربى التي تجمعهن بفلان أو علاّن، من معرفتهنّ بالبيك كذا أو بالأستاذ العظيم سليمان أو يوسف أو

فخري... حتى أن غازي غانم، المعروف بوطأة ثقله على الآخرين، صارحه قائلاً على مسمع من الجميع: "هل هي حفلة سمر أم جلسة استجواب؟ ثم ما لك يا رجل وهؤلاء الناس؟ وهل أنت من طينتهم، أصلاً، كيما تستقي أخبارهم بهذا القدر من الاهتمام؟". والغريب أن حاكم لم يغضب من هذه الملاحظات، ولم يضحك لها كذلك، علماً بأن غازي أطلقها من باب المداعبة. اكتفى بأن قال لهذا الأخير: "أنت لا تدرك!". لا يدرك ماذا؟ الله وحده يعلم!... وللحق أقول: ما من واحد منا أدرك ما الذي حلّ به ليلة الأمس. ولكن الشيء المؤكد هو أننا قد خرجنا من الحفل غير ما دخلنا إليه...

- انقضى هذا الأسبوع وكأنه شهر... لقد جرّت أيامه نفسها جراً!

أومأ حاكم برأسه موافقاً على ملاحظة زوجته؛ ثم أطلق تنهدة قصيرة تحسراً على عهده مع مرهف، على اللحظات الحلوة التي كانت تجمعه به، وعلى الحماسة التي كانت تدبّ في عروقه عندما كان يترقب إطلالته عند أعلى السلم، أو ينتظر عودته وعيناه مسمّرتان على باب الفندق الدوار. لقد انقضى أسبوع واحد على رحيل مرهف، غير أن أيامه السبعة مضت وكأنها سبعة شهور...

- لقد صعب عليك فراقه، أليس كذلك؟

طرحت أمينة سؤالها بشيء من الارتباك واقتربت أكثر من المكتب الذي تربّع حاكم وراءه. وسارع هذا الأخير يجيب:

- شأني شأن سائر من عرفه في هذا الفندق.

ابتسمت أمينة بمرارة ثم بارحت قاصدة المطبخ.

حاول حاكم أن يشغل نفسه بمراجعة سجل فندقه، غير أن الأرقام المدونة تباعاً تراقصت أمام عينيه متأبية البوح بمعانيها... أغلق السجل وأتكأ رأسه إلى ذراعه وردّد في نفسه، ساخراً في نفاقه: "شأني شأن سائر من عرفه في هذا الفندق...". من أراد أن يخدع بهذا الكلام؟

أمينة؟ وهل هي جاهلة بتحرّقه إلى ولد، إلى صبي كان سيكون الآن في سنّ مرهف لو شاء الله أن يرزقه إياه؟ وضحك حاكم بالرغم منه. فلو رزق ولداً فهل كان سيأتي على صورة مرهف؟ بهاء من كان سيرث؟ أجمال أمينة الخارق أم حسنه الذى لا مثيل له؟... وتأمل أصابع يده الغليظة، المعقودة عند المفاصل، المكسّرة الأظافر، وتذكّر أصابع مرهف التي تبدو وكأنها مقدودة من الرخام، من العاج، ومنحوتة بيد فنّان. وتذكر أيضاً يوم دخل عليه مرهف للمرة الأولى؛ تذكر سترته الجلدية السوداء، وكنزته الصوفية البيضاء، ووشاحه الأحمر، وكلماته المقتضبة، وتساءل من جديد عن الأسباب التي جعلته يتعلّق به منذ اللحظة الأولى. فهو، والحق يقال، قد تعلّق به، وعلى نحو غير معقول... فعندما جاء يودّعه كاد الدمع يطفر من مقلتيه حزناً وانفعالاً. وقد حرص مرهف على الانفراد به. طلب من رفاقه، الذين باتوا في الفندق ليلتها، أن يسبقوه إلى السيارتين اللتين أقلّتهما والمتوقفتين أمام المدخل، وتقدم نحوه. توقع حاكم أن يصافحه، غير أنه فاجأه بعناق وبقبلتين طبعهما على خدّيه. كان التأثر واضحاً على ملامح الشاب التي عهدها شبه جامدة، لا تعكس ما يشعر به. وقد رأى من واجبه أن يشكره على بادرته، على تفضله بدعوة أصدقائه لحضور حفلة الأمس. وقال له بالحرف الواحد: "لقد شرّفنا مدعووك بمجيئهم، فلولا التفاتتك الكريمة لما حظي هذا الفندق بنزلاء في منزلتهم". تفوه بهذه العبارات المفخّمة ولام نفسه، فوراً، على تصنّعه: فهل هو في صدد تدبيج رسالة رسمية كيما يلجأ إلى هذا الأسلوب المتكلّف؟ غير أن مرهف لم يعر حذلقته بالاً. فقد قبض على يده وشدّ عليها بقوة وهو يقول: "أنت إنسان طيب، فريد... أنت تعطي

وتشكر من أعطيت! يا ليت الناس جميعهم كانوا على شاكلتك!". وأضاف بعد لحظة صمت: "ليس أنا من يستحق الشكر بل أنت... وإني لأشكرك بعمق وصدق على حفلة الأمس طبعاً، وأيضاً على العطف والمودة اللذين أحطتني بهما طول إقامتي هنا". ولم يتمالك حاكم أن يتمتم، وإن بصوت يكاد لا يكون مسموعاً: "لماذا لا تبقى معنا؟ لماذا لا تمدد إقامتك ولو لأيام؟". ولم يجب مرهف، بل أشار بحركة من يده إلى حيث وقف رفاقه ينتظرونه. وقد لمس حاكم في حركته شيئاً من التردد، من الاستسلام بالأحرى، فكأن الشاب أراد أن يفهمه أنه يرحل لأنه لا مفرّ من الرحيل. هذا ما لاحظ، أو هكذا تأول. فربما لم يحرك مرهف ذراعه باتجاه رفاقه إلا ليستمهلهم قليلاً، ريثما ينتهي من طقوس الوداع. ربما...

أمينة، التي كانت قد اختفت عندما أزفت ساعة الرحيل، عادت إلى الظهور بعد أن أقلعت السيارتان وابتعدتا. جاءت إليه وانتصبت أمامه وكأن في فمها سؤالاً. ولمّا لم تتجرأ على صياغته بادرها قائلاً: "ماذا تريدين؟ ما الذي تبغيه؟". "لماذا لم تقترح عليه أن يبقى؟"، أجابت بلهجة معاتبة. ابتسم حاكم وأوضح قائلاً: "دعوته فرفض". غير أنها عادت تسأل: "وهل وضعت النقاط على الحروف؟ أعني هل أفهمته بأن إقامته في الفندق ستكون بلا مقابل؟ أي إقامة مجانية؟". فعاتبها قائلاً: "أعلى هذا النحو الفج تريدينني أن أتكلم مع مرهف؟... ثم من أخبرك بأنه يعاني من أزمة مالية؟ أما تأكدت، بأم عينك، من منزلة رفاقه الرفيعة؟ لقد سهرنا بالأمس يا أمينة مع ابنة زهير بك ماضي، وفخري بك سكر، ومع نجل وزير المال السابق، فوزي الطرابلسي؛ أجل، الشاب الذي يدعى أيهم هو ابن الوزير الأسبق! أما الذي لم يكفّ عن

الرقص، أعني الشاب المربوع الذي يدعى وسيم، فهو ابن شقيقة رجل الأعمال الشهير عثمان الدبّاغ. هؤلاء هم أصدقاء مرهف، وإلى عالمهم ينتمي. فكيف أغريه بالبقاء بأن أعده بإقامة مجانية؟!..." "كان بودي أن يبقى"، عقّبت أمينة بنبرة طفل حزين يرفض التخلي عن دمية أو عن قطعة من الحلوى. رأف حاكم لحالها فسعى إلى مؤاساتها قائلاً: "اسمعي يا أمينة، لئن لم يستقر مرهف معنا، فربما لأنه يعجز عن الاستقرار... إنه أقرب ما يكون إلى النيزك، تلك النجمة التي تجتاز الفضاء مسرعة ولا تضيئه إلا لثوان... نجمة يترقب البشر ظهورها لأنها أوتيت القدرة على تحقيق أمانيهم... أو هذا ما يعتقدون". ولابد أن أمينة راق لها هذا التشبيه لأنها ابتسمت في لحظتها، غير أن نزعتها إلى المعارضة دفعتها إلى القول: "سمِّه ما شئت، شهاباً، نيزكاً، نجماً. فبالنسبة لي كان وسيظل بدراً".

وتوقف حاكم فجأة عن استرجاع ذكريات يوم رحيل مرهف؛ دفع مقعده إلى الخلف وانتصب خلف مكتبه. انتزع سترته من فوق المشجب وارتداها على عجل. نادى على أمينة بأعلى صوته فجاءته مستفسرة، متبرمة. أفهمها بأنه سوف يتغيب لمدة ساعة أو أكثر للنهوض بعمل ملحّ. ولما سألته عن طبيعة هذا العمل الذي طرأ على حين غرّة وما عاد يحتمل التأجيل، قال منفعلاً: "تحقيق أمنية قديمة وغالية... سوف أذهب إلى يوسف، صانع اليافطات التجارية، لأوصيه على يافطة جديدة...". "وما بال يافطتنا، عقّبت أمينة؛ هل تشققت؟ هل تحطّمت؟". فردّ حاكم وهو يحدّق في وجه زوجته: "لم تتشقق ولم تتحطم، لكنها ما عادت تصلح. لذلك ينبغي تغييرها! فاليافطة الجديدة ستحمل اسم: "الفندق الكبير"؛ أجل، "الفندق الكبير لصاحبه حاكم الإلفي"!.

أأثقل على أدهم ثانية بهمومي وهو المأخوذ أبداً في دوامة عمله؟... فبودي أن أستفسره، أولاً، إن كان راضياً عن شراكتنا، أي عن حسن استخدامي لآلة تصويره في مشروعي الكتابي؛ كما بودي، ثانياً، أن أفاتحه بما آل إليه "وسيطي"، أن أعترف له بأنه قد أفلت تماماً من يدي وبدون سابق إنذار. أخشى أن أتسبب له بملل أو إزعاج، ولكن، إلى من أتوجه في لحظات شكّي إن لم يكن إلى ذلك الصديق المتفهم؟ ومن أصارح بالمأزق الذي انتهيت إليه إن لم يكن ذلك العزيز الذي حفظني عن ظهر قلب؟ فأنا في مأزق، شئت أم أبيت. لقد أردت بطلي يؤثر ولا يتأثر، فإذا به يتفاعل ويعلن عن آدميته في غفلة عني! أفلم يستنفر صداقاته ليحقق حلماً عزيزاً على قلب حاكم؟ أفلم يخطُ في اتجاه العطاء وهو الذي أصرّ على التمترس في خانة الأخذ والتلقي، وجعل من هذا الخيار الأناني نهجه في الحياة؟

كيف حصل هذا التحول ولماذا؟ لاريب في أن العطف الذي أحاطه به حاكم قد لعب دوره؛ ساعد على إحداث شقوق في درع اللامبالاة الذي كان قد حصّن به نفسه. ومن المرجّح، أيضاً، أن يكون صاحب الفندق الطيب، الذي ذكّره بوالده، قد أعاده إلى عهد طفولة أكثر انفتاحاً على الآخرين... ويقيني أن نزلاء الفندق قد ساهموا بدورهم، وإن على نحو متفاوت، في إضعاف دفاعاته وضعضعتها. ففي "بانسيون العائلات"

وجد مرهف نفسه بين أناس بسطاء، لا يطرحون عليه التحديات، ولا يسعون إلى أسره وتملكه. فوحدهم الأطفال يطلبون القمر، وقد كان قمراً في نظرهم في حين أنهم ما عادوا أطفالاً.

هذه الاعتبارات، مجتمعة، خليقة بإعطاء تفسير منطقي للتغيير الذي طرأ على مرهف. فهل أقبل بهذا التفسير "الموضوعي" وأصادق عليه؟ لو فعلت لضللّت نفسي، عامدة متعمدة؛ لتعاميت عن دوري الشخصي في حصول ما حصل؛ لتهربت من قسطي من المسؤولية في حدوث تحول ما كان ليخطر لي في بال. فلمَ اللف والدوران؟... لماذا لم أشأ أن أنهي الرواية كما بدأتها، أي على مشهد حاكم يخاطب مرهف بود واهتمام ومرهف لا يجيب عليه إلا بتعالٍ واقتضاب؟ لماذا لم أدع مرهف يرحل كما جاء، منغلقاً على نفسه، أصمّ عن كل دعوة أو نداء؟ أليس لأني أحببته؛ أحببته إلى حد عزّ عليّ معه أن أدعه للمصير الذي كنت قد رسمته له؟

في إحدى ثورات غضبها على مرهف تستنكر حنان "دكتاتورية الجمال" التي يمارسها الشاب بحقها وبحق كل من أحبّه. ولما كنت أكره الدكتاتوريات على أنواعها، حتى المشيّد منها على عبادة الجمال الذي أضعف أمامه، صعب عليّ ولابد أن أسدل الستار على مرهف وهو مجمّد في صورة طاغية مستبد. سعيت إلى عتقه من هذه النهاية ولو على حساب التنكر لمشروعي الأصلي. لقد وقعت أنا الأخرى في شرك وسامته وتطوعت للتضحية في سبيله. فالقارئ الذي رافقني عبر هذه الصفحات قد يوجه إليّ اللوم لأني نكثت بوعدي؛ بل قد ينتقد ويصدر حكماً قاسياً بحقي لأني ادعيت التوجه شرقاً فإذا بي أسير غرباً. أفلم يتأكسد وسيطي؟ أفلم يتفاعل مع أوكسيجين الحب والحياة؟... يحلو لي أن أتخيله الآن جالساً في صدر السيارة التي أقلته من "بانسيون العائلات" وإلى جواره حنان

ماضي؛ يحلو لي أن أرى رأسه وقد انحنت قليلاً على رأس الفتاة المتكئة على كتفه وشفتاه تهمهمان بكلام مفهوم وإن غير مسموع؛ يحلو لي أن أشرع الأبواب أمام انبعاث علاقة حب صادقة، عارمة، ومتينة بينهما. علاقة حب متبادل تتيح لمرهف أن يعرف، من جديد، طعم السعادة...

أأصارح أدهم بمشاعري؟ في الأمر بعض المجازفة. فإن قرأ أسطري وهو في لحظة صفاء، حاكمني بمنطق وعقلانية؛ "للبشر كيمياؤهم الخاصة"، قد يقول؛ أو "ما ينطبق على الجماد لا ينطبق على الأحياء"... سيبرئ صفحتي، بتعبير آخر، معتبراً أن رهاني كان مستحيلاً من الأساس. أما إذا ما وصلته رسالتي وهو في حالة تأزم، في صراع مع نفسه وشجار مع أحلامه، فإنه سيستقبل اعترافي بروح ساخرة وكلمات هازئة. "تتنطعين لتقديم بطل جلمودي، سوف يقول، وقلمك عاجز عن التعاطي مع القسوة!". "إن بطلاً من هذا النوع، سوف يضيف، يرفض أبوة القلب ولا يعترف إلا بأبوة العقل؛ فمتى استلهمت أنت عقلك في الكتابة؟"... بل وقد يذهب أيضاً إلى القول: "إن نزعتك إلى فهم الناس شبه مَرَضية. ومن "يفهم" يعجز عن أن يحاكم، فكم بالأحرى أن يقسو. فكيف تجرأت على مغامرة محكوم عليها، سلفاً، بالفشل...".

خير لي أن أكتم همومي عن أدهم تفادياً لتعليقاته وانتقاداته. لقد رأى وسيطي النور، في مطلق الأحوال، وانطلق يعيش حياته. يعيشها على هواه، لا كما كنت رسمتها له. يعيشها متحرراً من "الحياد" العاطفي الذي ألزم نفسه به وأراده، ربما، درعاً يحتمي به من الحزن والألم. فلئن كان حبه لوالده كبيراً فقد كان أكبر أيضاً ألمه لموته. ولعله لهذا السبب قرر ألا يتورط في أي علاقة عاطفية، لا خوفاً من الحب، بل خوفاً من فقدان الحبيب في غفلة من الزمن. أتراه تمكن أخيراً من تذليل هذا الخوف؟ ربما...

A
10

كيمياء البشر رواية تشريحية (ليس بالمشرط، وإنما بالقلم) لمجموعة من الشخصيات في علاقات متشابكة، معلنة، وسرية، مرسومة بدقة متناهية، وحس خاص بالتحولات في الطبائع. وهذا ما برعت في مجاله المؤلفة في أعمالها السابقة.

ISBN:2-84305-940-X
9 782843 059407